أوصاف أهل الجنة

محمد متولي الشعراوي

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين، وأذكى التسليم على سيد الكونين وفخر العالمين محمد بن عبد اللَّه النبي الأمي، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الجنة هي مطمح كل طائع، ومطمع كل عاصٍ، وأَمَلُ كل راغب، هي ما يرتجيه العُبَّاد والزُّهاد، والعلماء والنُّسَّاك، والمجاهدون والمنفقون في سبيل اللَّه.

كثيرة هي الكتب التي كتبت عن الجنة ونعيمها وأهلها ومن يستحقونها، ولكن عندما يكون الحديث لفضيلة الشيخ «**محمد متولي الشعراوي**» فالحديث له مذاق خاص، يأخذ بالأفئدة والقلوب، ويشد إليه العقول ويأسرها.

إنه حديث من القلب عن هذه الدار، دار النعيم، يخلد فيها المؤمنون، المتقون، الطائعون، الذين عبدوا اللَّه حق عبادته، وأخلصوا له كل الإخلاص، فكان جزاءَهم المنُّ عليهم والإنعام بدخول جنة الرضوان.

جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، فما بالك بطولها؟!!

إن وعد اللَّه حق، وعد الصدق، لذلك كان الإيمان بالدار الآخرة واليوم الآخر والجنة والنار هو إيمان باللَّه سبحانه، فاليقين في وعد اللَّه هو يقين فيمن أرسلهم اللَّه يبشروننا وينذروننا ويبلغوننا منهج اللَّه.

وما أطيب أن تكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، وما أسعد أن تحشر مع من يحبهم اللَّه عز وجل من الشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

أخي... إن أحسنت وآمنت وأطعت كنت رفيق النبي ﷺ في الجنة، كنت مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فضلاء هذه الأمة.

كم يشتاق الحبيب إلى حبيبه، والخِلُّ إلى خليله، والصاحب إلى صاحبه.. فأخلص العمل تنَلْ ما تريد...

وأخيراً نسأل اللَّه العظيم أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع، وأن يجعله ذخراً لنا يوم القيامة، وصلّى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، والحمد للَّه رب العالمين.

الناشر

الساعة حق

λ

λ

وعد اللَّه حق

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

أي: ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك، ولنسمع قول الحق استجابة لهم:

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ولنر اللفتة الجميلة في الاستجابة: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ لقد كانوا يذكرون اللَّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ويخشون خزي الدخول إلى النار، فدعوا اللَّه بغفران الذنوب وتكفير السيئات. ودعوا اللَّه أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل.

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم، لكنه جعل

الاستجابة هي قبول العمل فقال: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ فليست الحكاية كلاماً يقال، إنما يريد اللَّه أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنزوع العملي؛ فالمسألة ليست بالتمني فقط، فقد وضع الحق سبحانه الشرط الواضح، وهو العمل، فمن يُرِد استجابة الحق سبحانه فلا بد له من العمل.

إن التفكير في بديع صنع اللَّه تعالى لا يغني عن العمل؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل في أسبابه؛ فأسباب الحق يجب ألَّا تشغلك عن الحق.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالذين هاجروا من بلادهم وديارهم، وابتعدوا عن أهلهم وأحبابهم، دون إكراه فهجرتهم هذه هي نزع وجودي، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك في سبيل اللَّه تعالى. أي: فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم، وكذلك الذين أُخرجوا من ديارهم، وقاتلوا في سبيل اللَّه وتحمَّلوا الإيذاء وقُتلوا ـ هؤلاء ـ ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة.

لقد جاء الحق سبحانه بالعملية التي تتضح فيها الأسوة الإيمانية؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة، فإذا ما ضحَّى الإنسان بهذا كله في سبيل الثبات على كلمة اللَّه أولاً، وإعلاء كلمة اللَّه ونشرها ثانياً؛ فالمؤمن من هؤلاء لم يَكتفِ بنفسه، بل جاهد في سبيل اللَّه؛ لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره، وبذلك يكون قد أحبَّ لغيره ما أحبه لنفسه.

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هي أن الفكر وحده لا يكفي وإذا قال واحد: إن إيماني حسنٌ فلا تأخذني بالمسائل الشكلية؛ نرد عليه قائلين: إن اللَّه ليس في حاجة إلى ذلك، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسِّخ منهج اللَّه في الأرض؛ لأنك إن رسَّخت منهج اللَّه في الأرض، أدمتَ للوجود جماله.

الطاعة والمعصية
ضابط الثواب والعقاب

﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٤].

والحق سبحانه يبيِّن أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا؛ لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى، واستثنى منها نجوى من أَمَر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، بل ويجزي عليها حسن الثواب؛ لذلك قال: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾.

ويستخدم الحق سبحانه هنا كلمة «سوف»، وكان من الممكن أن يأتي القول: «فسنؤتيه أجراً عظيماً» لكن لدقة الأداء القرآني البالغة جاءت بأبعد المسافات وهو «سوف».

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم «السين»، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم «سوف». وجاء الحق هنا بـ«سوف» لأن مناط الجزاء هو الآخرة، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول: لماذا لم يعطني اللَّه الجزاء على الطيب في الدنيا؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل: «فسنؤتيه» ولكنه قال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مما يدل على أن الفضل والإكرام من اللَّه؛ وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل؛ لأن جزاء الحق سبحانه لعباده المؤمنين سيكون كبيراً، ولا يدل على هذا الجزاء في الآخرة إلا «فسوف».

ونعرف أن الرسول ﷺ حين يُمنِّي أُمَّته الإيمانية بشيءٍ فهو يمنِّيها بالآخرة، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول اللَّه ﷺ، فقال لهم رسول اللَّه ﷺ وحوله جماعة من أصحابه: «بايعوني على ألا تشركوا باللَّه شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على اللَّه، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره اللَّه إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه»[١].

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان.

لقد أخذت لنفسك يا رسول اللَّه، ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا، ماذا لنا إن نحن وَفَّينا بهذا؟ ولنر عظمة الجواب وإلهامية الرد، قال الرسول ﷺ: «لكم الجنة».

كان في استطاعة رسول اللَّه ﷺ أن يقول لهم: إنك ستنتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتي لكم خير البلاد الإسلامية كلها، لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يُستشهد واحد منهم في قتال من أجل نصرة دين اللَّه، فماذا سيأخذ في الدنيا؟ إنه لن يأخذ حظه من التكريم في الدنيا، ولكنه سينال الجزاء في الآخرة؛ لذلك جاء بالجزاء الذي سيشمل الكل، وهو الجنة ليدلهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء اللَّه محصوراً فيها، ويحض كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية، ونجد رجلاً يقول لصاحبه: أتحبني؟ فيجيب الصاحب: نعم أحبك. فيسأل السائل: على أي قدر تحبني؟ يقول الصاحب: قدر الدنيا. فيقول الرجل: ما أتفهني عندك!!

يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ومَنْ صاحب «نؤتيه» والفاعل لهذا العطاء؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذي وصف الأجر بأنه أجر عظيم، وكأن الحق يبلِّغنا:

ـ يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول اللَّه ﷺ وامتزجوا به؛ لتكونوا معه شيئاً واحداً، وإياكم أن يكون لكم رأي منفصل عن المنهج؛ فهو ﷺ مبلِّغ عن اللَّه، فمن آمن به فليلتحم به.

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصدِّيق ـ رضي اللَّه عنه ـ ساعة حدثوه في حكاية الإسراء والمعراج نجده يسأل محدِّثه: أقال رسول اللَّه ما قلتموه؟ فيقولون: بلى، لقد قال. فيرد عليهم الصدِّيق: إن كان قال فقد صَدَق؛ فالصدِّيق أبو بكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول اللَّه ﷺ، ويأتي الحق بالمقابل فيقول سبحانه:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكلمة «يشاقق» تدل على أن شقّاً قد حدث في أمر كان ملتحماً، مثلما نشقُّ قطعة الخشب فنجعلها جزأين بعد أن كانت كتلة واحدة، وأنتم أيها المؤمنون قد التحمتم بمنهج رسول اللَّه ﷺ إيماناً، واعترفتم به رسولاً ومبلِّغ صدقٍ عن اللَّه، فإياكم أن تشرخوا هذا الالتحام، فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه، فهذا شقاق للرسول ﷺ والعياذ باللَّه. أو المعنى: ومن سلك غير

الطريقة التي جاء بها الرسول ﷺ بأن صار في شقٍّ وشرع اللَّه في شقٍّ آخر.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن باللَّه خالقاً وربّاً، وآمن بالرسول ﷺ مبلِّغاً، وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى اللَّه؛ ولذلك قلنا: إن عمل العقل هو أن ينظر في أدلة الوجود الأعلى للَّه، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى للَّه، بقيت مرتبة، وهي أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلِّغ عن اللَّه؛ لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيماني على وجود اللَّه أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال.

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة، ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها؛ لذلك لا بد من البلاغ عن هذه القوة، وإذا تبين للإنسان الهدى في الوجود الأعلى وفي البلاغ عن اللَّه فلا بد للإنسان أن يلتحم بالمنهج الذي جاء به المبلِّغ عن اللَّه، ويفعل الإنسان مطلوب القوة العليا؛ لأن اللَّه قد أمر به؛ ولأن رسول اللَّه ﷺ قد بلَّغ الأمر أو فعله أو أقرّه. أما إذا دخل الإنسان في مماحكات فإننا نقول له: راجع إيمانك باللَّه أولاً، وإيمانك برسول اللَّه ﷺ ثانياً.

والهدى ـ كما نعرف ـ هو الطريق الموصِّل إلى الغاية، فكل فعل من أفعال الخلق لا بد له من هدف. ومَنْ فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز. أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدّية هدفه وأهميته، ويبحث له عن أقصر طريق، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى، ومن يعرف الطريق الموصِّل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ﷺ، ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه.

وهكذا نعرف أن هناك سبيلاً وطريقاً للرسول، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذي جاء به ٱلرسول، ويخالف المؤمنين أيضاً.

والحق هو القائل:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فليس للحق إلا سبيل واحد، ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذي يحدث له؟ ها هي ذي إجابة الحق سبحانه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وقد يأتي لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا: من يذاكرُ ينجحُ. (بالضم فيهما)، و«مَنْ» هنا اسم موصول؛ فالذي يذاكر

هو الذي ينجح. وقد نقول: مَنْ يذاكرْ ينجحْ. (بالسكون) وهنا «مَنْ» شرطية.

وفي الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هي، أما إذا كانت شرطية، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل، ويقتضي ـ أيضاً ـ جواباً للشرط. و«من» تصلح أن تكون اسماً موصولاً، وتصلح أن تكون أداة شرط، ونتعرف ـ عادة ـ على وضعها مما يأتي بعدها، مثال ذلك قول الحق سبحانه:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ﴾ ونجد «يتبعْ» هنا عليها سكون الجزم، وهذا يدل على أن «مَنْ» شرطية.

وتختلف القراءة لو اعتبرنا «مَنْ» اسماً موصولاً؛ لأن هذا يستدعي ترك الفعل «يشاقق» في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضمة، وكذلك يكون «يتبعْ» فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضمة؛ عند ذلك نقول: «نوليه ما تولَّى ونُصلِيه». ولكن إن اعتبرنا «مَن» أداة شرط ـ وهي في هذه الآية شرطية ـ فلا بد من جزم الفعل فنقرأها ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله: «ويتبعْ» ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله: «نولّهِ» «ونصلِه» والجواب وما عطف عليه مجزومان

بحذف حرف العلة وهي الياء من آخره ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ومعنى «تَوَلّى» أي: قرب، ويقال: فلان وَلِي فلاناً؛ أي: صار قريباً له، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكله إلى أصحاب الكفر. وها هو ذا الحق سبحانه يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[1].

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف، ويريد شريكاً ليقويه فيها. وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافي لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها. والحق سبحانه حين يعلمنا: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».

أي: أن له مطلق القوة الفاعلة التي لا تحتاج إلى معونة، ولا تحتاج إلى شريك؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفاً من شريك واحتياجاً لغريب؛ ولذلك فمن يشاقق الرسول في أمر إيماني فالحق يوليه مع الذي كفر ويقربه من مراده.

وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشيء المشاقق

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

لرسول اللَّه ﷺ، بل يكون جزاء المشاقق لرسول اللَّه ﷺ والمتَّبِع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه اللَّه ويدنيه من أهل الكفر والمعاصي، ويلحقه بهم ويحشره في زمرتهم، ولا يعني هذا أن اللَّه يمنع عن العبد الرزق، لا، فالرزق للمؤمن وللكافر، وقد أمر اللَّه الأسباب أن تخدم العبد إن فعلها، ومن رحمة اللَّه وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد، فالشمس تعطي الضوء والحرارة، والهواء يهب عليه، والأرض تعطيه من عناصرها الخير:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول سبحانه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهكذا نجد العطاء الربَّاني غير مقصور على المؤمنين فقط، ولكنه للمؤمن وللكافر، ولو لم يكن للَّه إلا هذه المسألة لكانت كافية في أن نلتحم بمنهجه ونحبه.

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ولا بد أن يكون المصير المؤدي إلى جهنم غاية في السوء.

عقاب المسيء

يقول الحق سبحانه:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

والأمنية هي أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مُسعِد بدون رصيد من عمل، والحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان في الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه، فلا يفسد الصالح بالفعل، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً.

والمثل الذي نضربه لذلك، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس، فهذه البئر لها حواف وجوانب وأطراف، وتفسد البئر إذا جاء أحد لهذه الحوافي وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر.

ومن يُرِد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هي، وبذلك يترك الصالح على صلاحه، وإن شاء إنسان أن

يطمح إلى عمل مسعِدٍ ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً... كأن يأتي إلى جوانب البئر ويبني حولها جداراً من الطوب كي لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملأوا جرارهم وَقِرَبهم فيفكر في رفع المياه بمضخة ماصَّة كابسة إلى صهريج عالٍ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً.

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى متعة دون عمل... فهذه هي الأماني الكاذبة، ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة عمل... فهذه هي الأماني التي لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف.

إذن: فالأمنية هي أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل. ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سبباً، ولنلحظ أن الحق سبحانه قد قال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥].

أي: أن الإنسان مُطالَبٌ بأن يصنع أشياء تُرَقِّي أساليب الحياة في الأرض، فاللَّه سبحانه ضمن للإنسان ـ الخليفة ـ مقومات الحياة الضرورية، وعندما يريد

الإنسان الترف والتنعُّم فلا بد أن يكدح.

وقد أعطى الحق سبحانه الإنسان المطر فينزل الماء من السماء، وينزل ماء المطر في مجارٍ محددة، حفرها المطر لنفسه، وقد يكون في كل مجرى تراب من صخور أو طمي؛ لذلك يقوم الإنسان بتقطير المياه، ويرفعها في صهاريج لتأتيه إلى المنزل، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة، يصنع كوباً جميلاً، وصنع الإنسانُ الكوبَ في البداية من الفخار، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البلور، وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه، فليست المسألة بالأماني.

وكذلك الانتساب إلى الدين، ليست المسألة أن يمتثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً، فالرسول ﷺ جاء ليحكم بين الناس جميعاً، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق اللَّه من الديانات الأخرى، لا؛ فالإنسان محكوم بما يدين به. والمسلم أول محكوم بما دان به.

كذلك قال الحق سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ والخطاب هنا لمن؟ إنْ كان الخطاب للمؤمنين فالحق سبحانه يبيِّن لهم: يَا أيُّها المؤمنون ليست المسألة مسألة أماني، ولكنها مسألة عمل؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل؛

فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة، فإذا قيل لهم: ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل؟ يقولون: أحسنًا الظن باللَّه.

ونسمع الحسن البصري يقول لهؤلاء: ليس الإيمان بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، إن قوماً ألهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن باللَّه وكذبوا، لو أحسنوا الظن باللَّه لأحسنوا العمل له.

والحق سبحانه يقول لهؤلاء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾.

أما إن كان الخطاب موجَّهاً لغير المؤمنين؛ فالحق سبحانه لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى لو لم يؤمن. أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً، وهو الوعد الحق بالجنة، هذا الوعد الحق ليس بالأماني بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل.

إذن: فقد يصح أن يكون الخطاب بـ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ شاملاً أيضاً الكفار والمنافقين وأهل الكتاب، وكان للكفار بعض الأماني كقول المنكر للبعث:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

هذه هي أماني الكفار، ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب، فقد قال الحق سبحانه عن أمانيهم:

﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

كل هذه أماني خادعة؛ لأن منهج اللَّه واحد على الناس أجمعين، من انتسب للإسلام الذي جاء خاتماً فليعمل؛ لأن القضية الواضحة التي يحكم بها اللَّه خلقه هو قوله سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وأبو هريرة رضي اللَّه عنه يقول: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: «سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها»[(١)].

وقال بعض العلماء: المراد بالسوء في هذه الآية هو الشرك باللَّه؛ لأن اللَّه وعد أن يغفر بعض الذنوب، واستندوا في ذلك إلى قول الحق سبحانه:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة.

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار، أما الذين آمنوا، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل اللَّه توبتهم ويغفر لهم، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما، وجعل الحج كفارة لما سبقه، وكل ذلك امتيازات إيمانية، أما جزاء الكفار فهو: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

ولا يقال فلان لا يجد، إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده، فالإنسان بذاته لا يستغني، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث لنفسه عن وليٍّ أو نصيرٍ ولن يجد.

والولي هو الذي يلي الإنسان، أي: يقرب منه، ومثلها النصير والمعاون، ولا يلي الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه، وما دام قد أحب قويٌّ ضعيفاً، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته.

ولماذا أورد الحق هنا «الولي»، و«النصير»؟ والولي ـ كما عرفنا ـ هو القريب الذي يلي الإنسان. أما كلمة «نصير» فتوحي أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورخاء، وهذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتي لنصرته، بينما لا يجد الكافر ولياً أو

نصيراً، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث، وعض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره، لكن أحداً لا ينصر على اللَّه.

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا؛ فالشخص الأسود يزيد اللَّه في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة؛ لأن المادة الملوِّنة للبشرة في جسده موجودة بقوة لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة.

إذن: فالسواد في الدنيا لصالح المُسْوَدِّ، أما في هذه الآية، فهي تتحدث عما سوف نراه في الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين، تماماً كما تتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض، إنه لن يكون سواداً أو بياضاً من أجل البيئات؛ ولذلك ستتعجب يوم القيامة؛ لأنك قد ترى إنساناً كان أسود في الدنيا، وتجده أبيض في الآخرة، وتجد إنساناً آخر كان

لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة.

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من اللَّه، لا، إن اللَّه يعطي كل واحد ما يناسبه، بدليل أن اللَّه قد أمدَّه باللون الذي يقوِّيه على البيئة التي يحيا فيها، وفي مجالنا البشري، نحن نعطي المصل لأي إنسان مسافر إلى مكان ما؛ حتى نحميه من شر مرض في المكان الذي يذهب إليه، كذلك خَلْقُ اللَّه في الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان في تكوينه المناعة التي تحفظه؛ فاللَّه لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة.

وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض، وتبيضُّ الوجوه المؤمنة، وتسوُّد الوجوه الكافرة.

أو أن البياض والسواد كليهما، أمر اعتباري، بدليل أنك ترى واحداً أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة، وترى واحداً آخر أسود اللون، ولكن نور اليقين يملأ وجهه، وبريق الصلاح يشع منه، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

أي: أن ما في داخل النفس إنما يتضح على قالب الإنسان؛ وتظهره ملامحه، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلِّي بالجاذبية الآسرة، وقد يكون

الأنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح.

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان في الدنيا، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة، ومثال ذلك: سواد العين وبياضها، هل يستطيع أحد أن يقول: إن بياض العين أحسن من سوادها؟ أو العكس؟ لا؛ لأن كل شيء معدٌّ لمهمته.

ومثال آخر: عندما يأتي عامل البناء ليثني عود الحديد المستقيم؛ ويلويه، فهل يقال: إن هذا الإنسان قد عوج الحديد؟ لا؛ إنه يريد أن يشكِّل عود الحديد ليكون صالحاً لمهمة معينة. وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا، إنما أراده اللَّه ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة، أما في الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فالمؤمن حين يرى ما أعده اللَّه له من النعيم المقيم يقابل عطاء اللَّه باستشراف نفس وسرور وانبساط، أما الذي يرى مقعده من النار فلا بد أن يكون مظلم الوجه. والحق سبحانه يوجِّه سؤالاً لهؤلاء: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أو كأن هذا أمر يُفاجئ من كان يعرف هؤلاء الناس في

الدنيا؛ فقد رأوهم في الدنيا بيض الوجوه، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة، فيقولون لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؟ وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان. هذه هي سمتهم وعلامتهم في الآخرة، أي: ما الذي صَيَّركم إلى هذا اللون؟ إنه الكفر بعد الإيمان.

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان؟

هذا يعني أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر، وماتوا على ذلك الكفر، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان، أو يكون ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يجعلنا نقول: البعدية هنا لا بد أن يكون لها قبلية: ألم يأخذ اللَّه على خلقه عهداً في عالم الذَّرِّ حين استخرجهم من ظهر آدم؟ وقال سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

إنه إقرار إيماني موجود في عالم الذّر، فمن جاء في الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان، أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ﷺ، بعد أن جاءتكم عنه البشارات التي عرفتموها، وقرأتموها في التوراة والإنجيل، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل، وانطبق عليكم قول الحق سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

إذن: فهذا القول، إما أن يكون في المرتدِّين، وإما أن يكون الكفر في واقع الدنيا بعد الإيمان في عالم الذر عندما أخذ اللَّه العهد على الناس جميعاً، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول اللَّه ﷺ وقد جاءت به البشارة في التوراة والإنجيل، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعاً، كالفِرَق التي خرجت عن الإسلام، وهي تدَّعي الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها. إن الآية تحتمل كل هذا، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآني نجده يستوعب كل هذه المعاني.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر، وذلك يعني أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله.

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

ولنلاحظ دائماً أن اللَّه حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

ومرة أخرى يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

ما الفرق بين الاثنين؟ إن الناس في العبادة صنفان: منهم من يعبد اللَّه ويريد نعيم الجنة، فيعطيه اللَّه الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح. وآخر يعبد اللَّه؛ لأن اللَّه يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله، وهذا ينال ذات الرحمة، إنه ينال لقاء وجه اللَّه.

وما الفرق بين الجنة والرحمة؟ إن الجنة مخلوقة للَّه، فهي باقية بإبقاء اللَّه لها، ولكن الرحمة باقية ببقاء اللَّه، وهذا ضمان كافٍ، فمن ير اللَّه فيه حسن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه اللَّه في الرحمة.

وقلنا من قبل: إن هناك جنة من الجنات اسمها «عليّون» ليس فيها متعة من المتع التي سمعنا عنها في الجنة، كلحم الطير وغير ذلك، وليس فيها إلا أن ترى اللَّه. وما دام العبد لا يأكل عن جوع في الآخرة، فما الأفضل له، جنة المتع، أو متعة رؤية وجه اللَّه؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمُنعِم؟ لا جدال أن التمتُّع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى. والدقة الأدائية في القرآن توضِّح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد

الصالحين، وتحيط بهم، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط، ولكن تحيط بهم، وهم خالدون فيها، ويؤكدها الحق سبحانه بظرفية جديدة بقوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فكأن هناك رحمة يدخل فيها العباد، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبداً. فـ «فيها» الثانية للخلود، و«في» الأولى للدخول في الرحمة.

وعود الشيطان الكاذبة

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[النساء: ١٢٠].

وهذا يعني أن الشيطان يقدِّم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشيء يسرُّهم، فالوعد هو أن يخبر أحدٌ آخر بشيء يسرّه أن يُوجَد.

والمثال على ذلك نراه في الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذي قد جاء بالتعب، والصدقة في ظاهر الأمر تنقص المال، فيقول الحق سبحانه: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

لماذا؟

لأن الشيطان يوسوس في صدر صاحب المال قائلاً: إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص، وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان لأنه يورده موارد التهلكة، والشيطان أيضاً يقدم الأماني الكاذبة في الوساوس: ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء، والعياذ باللَّه:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

المتفاخر يقول: ما دام اللَّه قد أعطاني في الدنيا، وما دامت مهمة اللَّه هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني ربي في الآخرة أضعاف ما في الدنيا؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة، فماذا كان جزاؤه؟

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

فما هو الغرور؟ هناك «غُرور» ـ بضم الغين ـ، و«غَرور» ـ بفتح الغين ـ والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنَّه حقيقة وهو في الواقع وَهْم. والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذه العملية، ولذلك فالغرور ـ بفتح الغين ـ هو الشيطان؛ لأنه يزيِّن للإنسان الأمر الوهمي، ويؤثر مثلما يؤثر السراب؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء، ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

وكذلك الغُرور، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان

ويوهمه أنه سيستمتع به، فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة، بل العكس، ولذلك يفصِّل لنا الحق سبحانه أعمال الكفار فيقول عنها:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ويفاجأ الكافر بوجود اللَّه تعالى ـ الذي كان كافراً به ـ ويصير أمام نكبتين: نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله، والنكبة الثانية أن يجد اللَّه الذي يحاسب على الإنكار والكفر.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

وقد يأتي واحد ويدَّعي لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول:

ـ هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالمواصلات وغيرها، أيصيرون إلى عذاب؟ ونقول: هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس في باله اللَّه سبحانه. بل قام بتلك الأعمال وفي باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم، وعليه

أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له، وينطبق عليه قول الرسول ﷺ:

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتى به فَعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعَلَّمْته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسَّع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلّا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقي في النار»[1].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في الجهاد. وأخرجه كذلك النسائي والترمذي وابن ماجه.

ولم يغمطهم اللَّه جزاء أعمالهم في الدنيا، فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم.

ووزع الحق سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين في بالهم اللَّه؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت اللَّه ويُسجِّل أحاديث الإيمان على أشرطة ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة، إذن: فهؤلاء الكافرون مسخَّرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب اللَّه لينالوا كرم اللَّه في عطاء العلم، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم، فلا يستذلون.

ألوان النعيم والعذاب

إن بعض الناس يفهم أنه بمجرد حدوث البعث والحشر سيكون المثوى في الجنة أو النار، ولكن المثوى لن يكون إلا بعد الحساب، وهذا استثناء من الزمن الخلودي، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب، فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود في الجنة أو النار.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ * ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

إذن: فهناك الاستثناء في النار والاستثناء في الجنة، فقول الحق سبحانه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة في الجنة وخلود أهل النار في النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يُعذَّبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط اللَّه عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم. وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجلُّ موقعاً، وهو رضوان اللَّه كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلهم ما يتفضل اللَّه به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهذا هو المراد بالاستثناء، والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ومعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أن اللَّه تعالى يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له.

يقول الحق سبحانه:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٨].

ومعنى ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: أن العذاب يظل دائماً أبداً وقد يظن بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهي أمره، لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية، إنه يتناسى قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦].

إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق سبحانه دائماً وأبداً، وقد يقول بعضهم: إن العلم قد توصَّل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطاً الأولى، وهو بذلك ينسى أن العذاب في الآخرة على نمط آخر، إن اللَّه يخلق للمعذَّب إحساساً جديداً ليظل مستشعراً دائماً للعذاب، قال الحق سبحانه: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: أن عذابهم مؤكَّد ولا يتركهم الحق سبحانه ليستريحوا من عذابهم.

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا﴾ [الطور: ١٣].

هناك من يدفعهم إلى النار دفعاً، وفي حياتنا ـ وللَّه المثل الأعلى ـ نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن، ذلك هو الدَّعُّ. وهكذا يكون قول الحق: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، أي: أن الكافر مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية، أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقاً لوجه ربه سبحانه.

ومن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ [الأنفال: ١٤] نفهم أن الإذاقة هي الإحساس الشديد بالمطعوم،

واللباس ـ كما نعلم ـ يعمُّ البدن، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله، وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾.

والذوق غير البلع والشبع، ونرى ذلك في عالمنا السِّلعي والتجاري؛ فساعة تشتري ـ على سبيل المثال ـ جوافة، أو بلحاً أو تيناً، يقول لك البائع: إنها فاكهة حلوة، ذق منها، ولا يقول لك: كُلْ منها واشبع، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشتري لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك. وما نراه في الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الريفي: (على لساني ولا تنساني)، والعذاب الذي ذاقه الكفار على أيدي المؤمنين مجرد ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم، وسيأتي الشبع من العذاب في الآخرة، لماذا؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب اللَّه على الكفر، وفي يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

إذن: فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هي مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧].

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و«العذاب» هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه، فأبقِ فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد، يقول سبحانه:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

كأن الذبح ينهي العذاب، بدليل أن مقابل العذاب في الآية هو الذبح.

وماذا عن عذاب النار؟ إن النار المعروفة في حياتنا تحرق من تدخله فيها، لكن نار الآخرة تختلف اختلافاً كبيراً لأن الحق سبحانه هو القائل:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

رجال بين الجنة والنار

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وهم يتراؤون من خلاله، وبيّنه الحق سبحانه فقال:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة، وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب، والحق هو القادر على كل شيء؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة، ويسمع أهل النار ردّاً على طمعهم في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة، إنكم تلتمسون الهدى في غير موطن الهدى؛ فزمن التكليف قد انتهى، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في الدنيا، فهذا النور

ليس هبة من خلقٍ لخلقٍ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به. وأنتم تقولون: انظرونا نقتبس من نوركم، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نورهم فالعطاء حينئذٍ للَّه.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

و«كُلاً» المعنيُّ بها: أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقد تقدم عندنا فريقان: أصحاب الجنة، وأصحاب النار، وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف، و«الأعراف» جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه، وكذلك عرف الفرس؛ كأن بين الجنة والنار مكاناً مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة.

وكيف توجد هذه السمات؟ يقال: إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لاستقبال سمات الإيمان، وكلما دخل في منهج اللَّه طاعة واستجابة أعطاه اللَّه سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه. وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة.

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون: سلام عليكم؛ لأن الأدنى منزلة ـ أصحاب الأعراف ـ يقول للأعلى ـ أصحاب الجنة: سلام عليكم.

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلٰهي الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

والقرآن يقول: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩].

ويا رب لقد ذكرت الميزان، وحين قدَّرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين: فريقاً ثقلت موازينه، وفريقاً خفَّت موازينه، ومنتهى المنطق في القياس الموازيني أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة، ولم تخفّ موازينهم فيدخلوا النار، وهؤلاء هم الذين يجلسون على الأعراف، ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم: سلام عليكم ـ على الرغم من أنهم لم يدخلوها، ولكنهم يطمعون في أن يدخلوا؛ لأن رحمة اللَّه سبقت غضبه.

﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غش ولا خداع.

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار؟

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٧].

انظر إلى التعبير القرآني ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي: أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا إليهم لأنهم ملعونون، وكأن في ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ لوناً من التوبيخ لأهل النار.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ ﴾ أي: جهة أصحاب النار يقولون: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

هنا يدعو أهل الأعراف: يا رب جَنِّبنا أن نكون معهم، إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون اللَّه ويستعيذون به ألّا يدخلهم معهم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨].

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين، فهذا أبو جهل، وذاك الوليد، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعَمَّار وبلال وصهيب وخباب، وغيرهم ممن

عاشوا للحق ومع الحق، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

وكأنهم يقولون لهم: إنّ اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء... شياطينكم، والأوثان، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً؟ لا، لم يغن عنكم شيئاً.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة: أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة اللَّه؟ هم إذن ـ أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار، وكأنهم نسوا موقفهم في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل في هذه المسألة، وهنا يدخل الحقُّ سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ وهم الطائفة التي جلست على الأعراف، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهي حالة تساوي الكفتين يأتي في أول سورة الأعراف، ولكنه ـ سبحانه ـ يقول بعد ذلك في سورة الأعراف: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وهؤلاء هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عُرف الفرس، وعُرف الفرس يعتبر أعلى شيء فيه، فحيناً يأتي شعر الفرس يميناً، وحيناً يأتي شعر الفرس يساراً، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى. وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار، وأصحاب الأعراف يجلسون؛ لا هم في الجنة ولا هم في النار، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وبذلك صحَّت القسمة العقلية في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة، ولا هي خَفَّت ليدخلوا النار، فميزانهم تساوت فيه الكفتان. وقال بعض العلماء عن الميزان: إن هناك ميزاناً بالفعل. وقال البعض: إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التي أقامها العادل الأعلى، والأعجب أن الحق سبحانه قال: إن هناك موازين، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان: ميزان العقائد، وميزان الأحكام... إلخ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً. أو أن هناك موازين متعددة، بدليل أن الإمام عليَّ بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ عندما سألوه: أيحاسِب اللَّه خلقه جميعاً في وقت واحد؟ فقال: وأي عجب في هذا؟ أليس هو رازقهم في وقت واحد؟ إذن: فالميزان بالنسبة للَّه مسألة سهلة جداً. وهيّنة، فسبحانه لا يتأبَّى عليه شيء.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه، ويأتي اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شيء، وكما يقول المثل العامي: (خسر الجلد والسقط). لماذا؟ تأتي الإجابة من الحق سبحانه؛ ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

أهل الجنة

اليقين في نعيم الجنة

أسمى أنواع اليقين هو «حق اليقين»، وقبلها «عين اليقين»، وقبل «عين اليقين» «علم اليقين»، وحينما عرض الحق سبحانه هذه المسألة قال:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[التكاثر: ٣ ـ ٧].

اللَّه سبحانه يعطينا علم اليقين، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه، وسيرى المؤمنون ـ وهم على الصراط ـ النار وذلك عين اليقين. أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق سبحانه؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة. والكافرون باللَّه هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين. ويأتي «حق اليقين» في موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٢ ـ ٩٥].

فكل مكذِّب ضالٍّ سينزل إلى الحميم ويَصْلَى الجحيم ويعاني من عذابها حق اليقين. إذن: فقوله سبحانه عن مسألة قتل عيسى ابن مريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث تصديق علم يقين لأن اللَّه سبحانه هو القائل، والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا في ذلك. وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذي عرف حقيقة اليقين.

والحق سبحانه يقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ٣٧].

انظر ماذا فعل فيه البخل، إنه جعل صاحبه كافراً؛ لأن البخيل ستر نعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره، فجاء له بالشيء الذي يخيف؛ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ «أعتدنا» أي: أعددنا وهيَّأنا، فالمسألة موجودة وقد أُعِدَّت، والنبي ﷺ حينما يتكلم عن الجنة يقول:

«عُرِضت عليّ الجنة لو مددتُ يدي لتناولتُ من قُطوفها»[(١)].

(١) رواه النسائي وأحمد، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال.

هذه ثقة اليقين في أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد، ومن الذي أعد؟ إنه اللَّه سبحانه، قوة القوى، قُدرة القدر هي التي تُعِدُّ، وهو يعدها على قدر سعة قدرته، عذاب مهين؛ لأنه قد يتطاول أحد ويقول: أنا أتحمل العذاب، كما قال الشاعر:

وتجلُّدِي للشَّامِتِين أُرِيهمُو أَنِّي لرَيْبِ الدهرِ لا أَتَضَعْضَعُ

فسبحانه يبيِّن: لن يلقى البخيل العذاب فقط، بل سيلقى عذاباً مهيناً.

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ برسول اللَّه ﷺ فقال له: «كيف أصبحتَ يا حارث؟» فقال: أصبحتُ مؤمناً حقا. قال: «انظر ما تقول؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغُون[١] فيها فقال: «يا حارث عرفتَ فالزمْ»، ثلاثاً[٢].

ولنا العبرة في سيدنا حذيفة ـ رضي اللَّه عنه ـ حينما سأله رسول اللَّه ﷺ قال له: «كيف أصبحت؟» أي: كيف

(١) يتضاغون: يصيحون من الألم.

(٢) رواه الطبراني.

حالك الإيماني؟ قال حذيفة: يا رسول اللَّه، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ـ أي: أن الذهب تساوى مع الحصى، هذه هي مسألة الدنيا ـ وأضاف حذيفة: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وإلى أهل النار في النار يعذبون.

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة، فهو يسير في الحياة مستقيماً... فقال له النبي ﷺ: «عرفتَ فالزمْ».

جنة عرضها السموات والأرض

يقول الحق سبحانه:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والسرعة مقابلها العَجَلة، ومعنى السرعة: التقدم فيما ينبغي، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغي: أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل، والمثال على ذلك: عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات في زمن أقل، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة فهو يسرع كي يقطعها في ساعتين.

إذن: فالسرعة هي: التقدم فيما ينبغي، وهي محمودة، وضدها: الإبطاء. فالسرعة محمودة، والإبطاء مذموم.

لكن «العَجَلة» تقدُّم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، ومقابلها «التأني»، والتأني ممدوح، إذن: فالسرعة محمودة، ومقابلها الإبطاء مذموم، والعجلة مذمومة، ومقابلها التأنِّي ممدوح، والمثل الشعبي يقول: (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة).

إن الحق سبحانه يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة؛ لإنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا، إياك أن تؤجِّل عملاً من أعمال الدين أو عملاً من أعمال الخير؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا؛ فانتهزْ فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة، هذا هو المعنى الذي يأتي فيه الأثر الشائع «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

الناس تفهمها فهماً يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى: «اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً» يعني: اجمع الكثير من الدنيا كي يكفيك حتى يوم القيامة، وليس هذا فهماً صحيحاً، لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً، أمَّا أمر الآخرة فعليك أن تُعجِّل به.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ونحن نعرف أن المساحات لها طول وعرض؛ لأن الذي طوله كعرضه يكون مربعاً، إنما الذي عرضه أقل من طوله فنحن نسميه «مستطيلاً»، وحين يقول الحق سبحانه: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ نعرف أن العرض هو أقل البعدين، أي: أنها أوسع مما نراه، فكأنه شبّه البعد الأقل في الجنة بأوسع بُعْدٍ نعرفه وهو السموات والأرض

ملتصقة مع بعضها بعضاً فأعطانا أوسع مما نراه، فإذا كان عرضها أوسع مما نعرف فما طولها؟ إنه حدٌّ لا نعرفه.

قد يقول قائل: إذا كان اللَّه قد بيَّن عرضها فقال سبحانه: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ فأين طولها إذن؟ ونقول: وهل السموات والأرض هي الكون فقط؟

إنه سبحانه يقول:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويقول النبي ﷺ: «ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك في فلاة» أليست هذه من مُلك اللَّه؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدَّت للمتقين، ومعنى «أُعدَّت» أي: هُيِّئت وصُنعت وانتهت المسألة! يؤكد ذلك رسول اللَّه ﷺ فيقول:

«عُرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت»[(١)].

لماذا؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك، ولكن الوجود للحدث ينفي ألَّا يوجد؛ لأن وجوده صار واقعاً، فعندما يقول:

(١) رواه البخاري في الأذان، وابن ماجه في الإقامة ورواه أحمد في المسند.

«أُعدَّت» فمعناها: أمر قد انتهى الحق من إعداده، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقي الدنيا عندكم ويأخذ وسائل ومواداً مما ارتقيتم ليعدَّ بها الجنة، لا.

لقد أخبرنا الحق سبحانه عنها في الحديث القدسي فقال: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وأعد الحق سبحانه الجنة كلها بـ«كن»، فعندما يقول: «أُعدَّت» تكون مسألة مفروغاً منها، وما دامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه، والجنة أُعدَّت للمتقين، فمن هم المتقون؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

هذه بعض صفات المتقين ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ لأن المعركة ـ غزوة أُحُد ـ ستعطينا هذه الصورة أيضاً، فحمزة بن عبد المطلب وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول اللَّه ﷺ يُقتل. وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به، وأُخذ بضع منه وهو الكبد فلاكته «هند بنت عتبة»، وهذا أمر أكثر من القتل. وهذه معناها ضغن دنيء.

وحينما جاء لرسول اللَّه ﷺ خبر مقتل حمزة وقالوا له:

إن «هنداً» أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها، إذ جعلها اللَّه عصية عليها، قال: «ما كان اللَّه ليعذب بعضاً من حمزة في النار» كأنها ستذهب إلى النار، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلايا، وعندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار، فلا بد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقيء وتلفظ تلك البضعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء.

رفقاء النبي ﷺ في الجنة

الرسول ﷺ يعطينا هذه المنزلة فيقول: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بإصبعيه متجاورين، أيّ منزلة هذه! فباللَّه بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منّا عن يتيم يكفله لكي يكون مع النبي ﷺ في الجنة، وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابيٍّ.

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول اللَّه ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ: «يا فلان ما لي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبيَّ اللَّه شيء فكَّرت فيه فقال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً تُرفَع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ ونزل عليه جبريل بهذه الآية:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

فبعث النبي ﷺ فبشّره.

فالحق يقول لهؤلاء: لا تحزنوا، فما دمتم تحبون

رسول اللَّه ﷺ وتفرحون في الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم لأنكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه في الجنة، فالمرء مع من أحب، ولذلك أقول لكل مسلم: ابحث عن يتيم تكفله كي تأخذ المنزلة الإيمانية، المنزلة العلية في الآخرة.

فقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما.

فقال لي: إذا عاملنا اليتيم في ضوء هذه التعاليم فماذا يحدث؟ سينتشر التكافل في المجتمع.

جزاء المتقين الجنة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً في معيَّته. فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه، ومن عقابه النار.

إذن فقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أن نتقي صفات الجلال، والنار من خلق اللَّه وجنده. وقوله سبحانه: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: نبحث عن الوُصْلة التي تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته سبحانه، وهل هناك وسيلة إلا ما شرّعه اللَّه سبحانه وتعالى؟ وهل يتقرب إنسان إلى أي كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه؟

وعلى المستوى البشري نحن نجد من يتساءل: ماذا يُحب فلان؟ فيقال له: فلان يحب ربطات العُنق. فيُهديه عدداً من ربطات العُنق. ويقال أيضاً: فلان يحب المسبحة الجيدة، فيحضر له مسبحة رائعة. إذن: كل إنسان يتقرّب إلى أي كائن بما يُحب، فما بالنا بالتقرب إلى اللَّه؟ وما

يحبه سبحانه بيَّنه لنا في حديثه القدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد، فيقول سبحانه في الحديث القدسي: «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل».

أي: أن العبد يتقرب إلى اللَّه بالأمور التي لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه، فلا ابتكار في العبادات. إذن: فابتغاء الوسيلة من اللَّه هي طاعته والقيام على المنهج في «افعل» و«لا تفعل».

والوسيلة عندنا أيضاً هي منزلة من منازل الجنة. والرسول ﷺ طلب منا أن نسأل اللَّه له الوسيلة فقال:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ فإنه من صلّى عليَّ صلاة صلى اللَّه عليه بها عشراً ثم

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، ورواه ابن ماجه في السنن.

سلوا اللَّه لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد اللَّه وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل اللَّه لي الوسيلة حلّت له الشفاعة».

ويقول الحق سبحانه:

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وحين تسمع كلمة «أؤخبركم» فما نسمعه بعد ذلك كلام عادي، أما عندما نسمع ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا في الأحداث العظام، فلا يقول أحد لآخر: سأنبئك بأنك ستأكل كذا وكذا في الغداء، ولكن يقال: «أنا أنبئك نلت جائزة كبرى»، هذا في المستوى البشري فما بالنا باللَّه الخالق الأعلى، ولذلك يقول اللَّه سبحانه:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

إنه الأمر الذي يقلب كيان هذه الدنيا كلها، فحين يقول الحق: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ فمعنى ذلك أن اللَّه يخبرنا بخير من هذه الأشياء، ومن ذلك نعرف أن اللَّه قد جعل هذه الأشياء مقياساً، لماذا؟

لأنه مقياس محسٌّ، وبيَّن لنا كيفية التصعيد فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والمؤمن هو من ينظر بثقة إلى كلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: الرب المتولِّي التربية والذي يتعهد المربِّي حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه.

والعندية هنا هي عند الرب الأعلى، فماذا أعد المربِّي الأعلى للمتقين؟ لقد أعد لهم ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولنر الخيرية في هذه الجنات، وهي تقابل في الدنيا الحرث والزرع، وقد قلنا: إن الحق سبحانه حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ«الحرث» لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملاً.

أما في الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل إن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده اللَّه به: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ إنه الخلود الذي لا يفنى، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسان.

* نساء أهل الجنة:

والأزواج المطهرة هي وعد من اللَّه للمؤمنين، ومن يحب النساء في الدنيا يعرف أن المرأة في الدنيا يطرأ عليها أشياء قد تُنفِّر، إما خَلْقاً تكوينياً، وإمَّا خُلُقاً، فهناك وقت

لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جمالها.

لذلك فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجي للمرأة في الدنيا، وقد يقع الإنسان في هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها، أما في الآخرة فالأمر مختلف، إنهن حُورٌ عِينٌ ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهَّرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا، فيأخذ المؤمن جمالها، ولا يوجد فيها شرور الدنيا، فقد طهرها اللَّه منها.

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مَن الذي طهَّرها؟ إنه اللَّه ـ سبحانه ـ طهَّرها خَلْقاً وخُلُقاً، والرجل في الدنيا قد يهوى امرأة، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتنافر، أما في الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شيء، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد، أليس هذا تصعيداً للخير؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين:

الأمر الأول: هو جنات تجري من تحتها الأنهار، ونقارن بينها وبين الحرث في الدنيا.

والأمر الآخر: هو الأزواج المطهرة، ونقارن بينها وبين النساء في الدنيا أيضاً، ولم يورد الحق سبحانه أي شيء عن بقية الأشياء، فأين القناطير المقنطرة من الذهب

والفضة؟ وأين الخيل؟ وأين الأنعام وأين البنون؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزينين: واحداً يستهل به الآية، والأمر الآخر يأتي في آخر الآية، ولنقرأ الآية التي فيها التزيين: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

إن البداية هي النساء، ذلك هو القوس الأول، والنهاية هي الحرث وذلك هو القوس الثاني، وبين القوسين بقية الأشياء المزينة، وقد أعطانا اللَّه ـ سبحانه ـ عوَض القوسين، وبيَّن لنا أنهما هما الخير المُصَعَّد، ولم يورد بقية الأشياء المَزينة، وهذا يعني أن نفهم ذلك في ضوء أن الرزق ما به انتُفِعَ، أي: أن كل ما ينتفع به الإنسان رزق؛ الخُلق الطيب رزق، وسماع العلم رزق، وأدب الإنسان رزق، وحِلْم الإنسان رزق، وصدق الإنسان رزق، لكن الرزق يأتي مرة مباشراً بحيث تنتفع به مباشرة، ومرة أخرى يأتي الرزق لكنه لا ينفع مباشرة بل قد يكون سبباً ووسيلة لما ينفع مباشرة.

مثال ذلك: الخبز، إنه رزق مباشر، والنقود رزق، لكنها رزق غير مباشر؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب، فلو قال واحد لهذا الإنسان: خذ رغيفاً

مقابل جبل الذهب؛ فسيعطي الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب، وكذلك كوب الماء بالنسبة للعطشان.

إذن: فهناك رزق لا يطلب لذاته، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره. فالوسيلة لغيره لن تحتاج إليها في الآخرة؛ لأنك ستعيش ببدل الأسباب؛ بقول الحق: «كن»؛ فالإنسان لن يحتاج في الجنة إلى مال، أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة؛ لأن كل ما تشتهيه النفس ستجده، ولن تحتاج في الآخرة إلى خيل مسوَّمة؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها.

وكل ما لا تحتاج إليه في الآخرة من أشياء أعطاها لك اللَّه في الدنيا لتسعى بها في الأسباب، ولم يورده اللَّه في قوله:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥] لم يوردها في النص الكريم؛ لأن عطاء اللَّه في الآخرة بالرزق المباشر، أما الأشياء التي يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر في الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها في الآخرة، فنحن نحب المال، لماذا؟ لأنه يحقق لنا شراء الأشياء، والخيل

المسومة نحبها؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد في سبيل اللَّه، ونحب الأنعام؛ لأنها تحقق لنا فوائد كثيرة.

أما الجنة في الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وكل ما يخطر ببال من يرزقه اللَّه الجنة سوف يجده؛ فالوسائط لا لزوم لها؛ لذلك تكلم الحق سبحانه عن الأشياء المباشرة، فأورد لنا ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وذكر لنا الأزواج المطهرة.

وعندما نتأمل قول الحق: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ قد يقول قائل: ألم يكن من المنطق أن يخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به، بدلاً من أن يسألنا: أيخبرنا بهذا الخير، أم لا؟

ونقول: أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل، وحنان اللَّه على خلقه. إنه سبحانه وتعالى يقول لنا: ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تَفْضُل تلك الأشياء التي تُسيّركم في الدنيا، فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه، ولم ينتظر الحق أن نقول له: قل لنا يا رب.

لا، إنه سبحانه يقول لنا دون طلب منا، ويقال عن هذا الأسلوب في اللغة إنه «استفهام للتقرير»، فالإنسان حين

يسمع: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ فالذهن ينشغل، فإن لم يسمع النبأ، فلسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ، ويأتي الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن.

ويأتي النبأ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، فعندما نمعن النظر في الشهوات التي تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقي الإنسان ربه في مجالها؟

إن التقوى للَّه في هذه الأشياء واجبة، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة، وأن يوقفوا الحياة على العبادة في أمور الصلاة والصوم، وأن نترك كل شيء. لهؤلاء نقول: لا؛ إن حركتك في الحياة تعينك على التقوى؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية. فإذا ما أخذت نعم اللَّه لتصرفها في ضوء منهج اللَّه فهذا هو حسن استخدام النعم.

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتي مرة في قول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتأتي مرة أخرى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ فهما ملتقيان؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى، وعندما يتقي الإنسان اللَّه تعالى فهو يتقي

غضب اللَّه؛ لأن غضب اللَّه يورد العذاب، والعذاب من جنود النار. إذن: فالذين يتقون اللَّه لا يظنون أنهم زهدوا في هذه الحياة لذات الزهد فيها، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها، إنه الطمع في النعيم الأخروي الدائم.

ويبين الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: إنكم لن تتمتعوا في الآخرة لضرورة الحاجة للمتعة، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم ـ أيها المؤمنون ـ تحبون فقط أن تروا المنعم، فما دام المؤمن الذي يدخل الجنة يجد كل ما يشتهي بل إنه لا يشتهي شيئاً حتى يأتيه، ويستمتع على قدر عطاء اللَّه وقدراته.

وإذا لم يشته الإنسان ثماراً في الجنة أو نساء، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها «عليّون» و«عليّون» هذه ليس فيها شيء مما تسمعه عن الجنة، ليس فيها إلا أن تلقى اللَّه. إنّ الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة في الجنة، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها؛ فالذي يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من اللَّه.

إن رضواناً من اللَّه أكبر من كل شيء. ولقد نبأنا اللَّه بما في الجنات، ونبأنا بالخير من كل ذلك. لقد نبأنا اللَّه

بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أنْ يظفر برؤية ربّه. وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

إذن: فهناك في الجنة مراتب ارتقائية، . ويخبرنا الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: أن اللَّه سيعطي كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه، فمن أطاع اللَّه رغبة في النعيم بالجنة يأخذ جنة اللَّه، ومن أطاع اللَّه لأن اللَّه أهل لأن يطاع فإن اللَّه يعطيه متعة ولذة النظر إليه ـ سبحانه ـ وفي هذا المعنى تقول رابعة العدوية:

كُلُّهم يَعبُدون مِنْ خَوفِ نارٍ وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظاً جَزيلا
إنّني لستُ مِثْلَهمْ ولهذا لستُ أَبغِي بِمَنْ أُحبُّ بَدِيلا

وقالت أيضاً: اللهم إن كنتَ تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأدخلني فيها، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد.

إذن: فاللَّه سبحانه وتعالى بصير وعليم بخلقه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: أنه سيعطي كل عبد على قدر حركته ونيته في الحركة؛ فالذي أحب ما عند اللَّه من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها اللَّه عليه. أما الذي أحب اللَّه وإن سلب منه النعمة، فإن اللَّه يعطيه العطاء

الأوفى، وذلك هو مجال مباهاة اللَّه لملائكته، ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله، إيثار محبة اللَّه ورسوله ﷺ على كل شيء في الوجود:

عن أنس رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: مَنْ كان اللَّه ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا للَّه، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار»[1]. إن هناك العبد الذي يحب لذاته؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تُعبَد، فذات اللَّه تستحق العبادة؛ لأنه الوهاب الذي نظَّم لنا هذا الكون الجميل.

إذن فقول الحق سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعني أن اللَّه يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه، وعلى مقدار حركته ونيته في ربه يكون الجزاء، فمَنْ عَبَدَ اللَّه للنعمة أعطاه اللَّه النعمة المرجوة في الجنة، ومن أطاع اللَّه لأنه أهل لأن يُطاع وإن أُخِذت ـ بضم الألف وكسر الخاء ـ النعمة منه فإن اللَّه يعطيه، مكاناً في عليين.

ولذلك قيل: إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. لماذا؟ لأن ذلك دليل صدق

---

(١) رواه مسلم والبخاري.

المحبة، والإنسان عادة يحب من يحسن إليه، ولا يحب من تأتي منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة، إنه مطمئن إلى حكمته، إنه ابتلاه ـ وهو يعلم صبره ـ ليعطيه ثواباً جزيلاً وأجراً كبيراً، والحق سبحانه يقول:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

لقد قال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ولم يقل: جنة ربه، وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم وهو اللَّه سبحانه وتعالى، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة أحَدٌ.

وقد أمر اللَّه المؤمنين أن يتقوه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

إن اللَّه قد أعطى المؤمنين المناعة أولاً بألا يسمعوا كلام أعداء الدين، وحين نسمع كلمة ﴿ٱتَّقُواْ﴾ فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

إن الحق سبحانه يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجاباً يقيه منها. والحق سبحانه وتعالى حين يقول:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [المائدة: ٤].

أي: اجعل بينك وبين اللَّه حجاباً يقيك من غضبه. وقد يقول قائل: كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش في معية اللَّه؟

نقول: إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال اللَّه، وأنت تستظل بصفات الجمال، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال، وهي القهر والجبروت وغيرها، وكذلك النار إنّها من جنود صفات جلال اللَّه. فحين يقول الحق سبحانه: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أو ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ فالمعنى واحد، وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ ماذا تعني ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾؟ إن كلمة «حق» ـ كما نعرف ـ تعني الشيء الثابت لا يزول ولا يتزحزح، أي: لا ينتهي ولا يتذبذب، هذا هو الحق.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۞ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

ما معنى «محسن»؟ إنها وصف للإنسان الذي آمن بربه فعَبَدَ اللَّه بأكثر مما افترض عليه، فنحن قد فرض علينا خمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مَثَلاً، ونحن تعبدنا اللَّه بصيام شهر في العام، ومنا من يصوم في كل شهر عدداً من الأيام.

وتعبدنا بالزكاة بالنِّصاب، ومنا من يزيد على النِّصاب، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة، ومنا من يزيد عدد مرات الحج، فحين يريد العبد أن يدخل في مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده اللَّه به؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التي يعبد بها اللَّه، ولكنه يزيد فيما افترضه اللَّه. وهؤلاء الذين آمنوا باللَّه من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن، لقد دخلوا بثقلهم في الإسلام فصلُّوا آناء الليل وقرأوا القرآن، ودخلوا مقام الإحسان، وأرادوا أن يطبقوا قول الحق سبحانه:

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

أي: أنهم ما داموا قد صلُّوا في الليل، وقليلاً ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة في آناء كثيرة من الليل، ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصلِّي في الليل، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها، وننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة في الأرض، ويسألون عنها فيقال لهم: إنها البيوت التي يصلِّي أهلها آناء الليل وهم يسجدون، وكل بيت فيه هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء.

ويضيف الحق سبحانه في صفات هؤلاء: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وهل فرض اللَّه على خلقه بأن يصلوا بآناء الليل فلا يهجعون إلا قليلاً من الليل؟ لا، ولكن من يريد أن يدخل في مقام الإحسان، فهو يفعل ذلك. أما المسلم العادي فيكتفي بصلاة العشاء، وعندما يأتي الصبح فهو يؤدي الفريضة، لكن من يدخل مقام الإحسان فقليلاً من الليل ما يهجع، وينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

وهذه دقة البيان القرآني التي توضح مقام الإحسان، فيكون في مالهم حق للسائل والمحروم، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج؛ لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان، ومقام الإيمان ـ كما نعرف ـ قد جاء ذكره في قول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٦].

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيِّد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلاً، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

«أولئك»: إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

مع بيان أوصاف المتقين في قوله سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر، وينفقون في الضراء نفقة الذِّكْر والتضرُّع؛ لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة، والنعمة حين تنفق في الضراء تقتضي ضراعة إلى اللَّه ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء. إذن: فهم ينفقون سواء أكانوا في عُسر، أم كانوا في يُسر.

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن اللَّه أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم، وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم، لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً، وأمره بالإنفاق في العسر واليسر؛ ولذلك قالوا: فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحبس.

وتتتابع أوصاف المتقين:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى؛ لأن اللَّه جعل ذلك من أوصاف المتقين، فالفاحشة التي تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد للَّه بعدها، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون؛ لأن الحق هو الغفور: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

إنهم قد أُخبروا بذلك، فلم يجرِّم الحق سبحانه أحداً إلا بنص، ولم يعاقب إلا بجريمة، وقول الحق سبحانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ هو إشارة لكل ما سبق.

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوي قوسين:

القوس الأول الذي ابتدأ به هو قوله الحق: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران؛ ١٣٣].

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر؛ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

فالجنة الأولى التي ذكرها اللَّه إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل، والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه، فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل، وأيضاً تقدير للعامل، فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل.

إذن: فالمسألة مسألة حاجة من صاحب العمل، أو حاجة من عامل، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها بين إلٰه لا يحتاج إلى عملك، ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً.

ما هذه المسألة؟ هو ليس محتاجاً إلى عملك، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك: إن هذا الأجر هو الحد الأدنى، لكن لي أنا أن أضاعف هذا الأجر، ولي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر؛ فكم مرحلة إذن؟ إنها ثلاث مراحل، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر.

إذن: فالحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط، ولكن فوق ذلك بكثير. إن الذي تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك ـ على سبيل المثال ـ ما يكفيك قوت يوم، أو قوت يوم ونصف يوم. ولكنك حين تأخذ الأجر من يد اللَّه فإنه يعطيك أجراً لا تنتهي مدة إنفاقه؛ فهو سبحانه القائل: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾.

هذا هو الأجر الذي يقال فيه: نِعْمَ هذا الأجر؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي، بل يفوق كل ما بذلت مَن جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود.

إنه سبحانه متفضِّل عليَّ أولاً، ومتفضِّل عليَّ أخيراً؛ ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك ـ أيها العبد ـ حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك، ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت.

﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

والنزل هو المكان الذي يعد لنزول الضيف، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر،

وفي إحدى السفريات نزلنا في فندق فاخر فقال لي زملائي وإخواني:

هذا لون من العظمة البشرية.

قلت لهم: هذا ما أعده البشر للبشر، فكيف بما أعده اللَّه للمؤمنين؟

وعندما ترى تقلُّب الكفار في البلاد فاعلمْ أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم اللَّه في تقلبهم، وفي ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام؛ ٤٧].

ويقول سبحانه:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٦].

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور، وهو يتقلب فيأتيه عذاب اللَّه بغتة، والعذاب يأتي مرة بغتة، ومرة أخرى جهرة. إنه يأتي بغتة حتى يكون الإنسان متوقعاً له في أي لحظة، ويأتي جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون، فهم يرونه وهم في فزع ورعب.

جزاء القتال في سبيل اللَّه الجنة

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

ومادة: «شرى» ومادة «اشترى» كلها تدل على التبادل والتقايض، فأنت تقول: أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم؛ أي: أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم، وشرى تأتي أيضاً بمعنى (باع) مثل قوله الحق:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام في الجُبِّ كانوا فيه من الزاهدين، وبعد ذلك باعوه بثمن بخس، إذن: فـ«شرى» من الأفعال التي تأتي بمعنى البيع وبمعنى الشراء؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان في القيمة،

وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة في السلع، فلم يكن هناك نقد متداول، كان هناك من يعطي بعض الحَبِّ ويأخذ بعض التمر، فواحد يشتري التمر وآخر يشتري الحَبَّ، والذي جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال.

وما الفرق بين السلع والمال؟ السلعة هي رزق مباشر والمال رزق غير مباشر.

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفاً ولا تجده؛ أينفعك جبل الذهب؟ لا؛ إذن: فالرغيف رزق مباشر؛ لأنك ستأكله، أما الذهب فهو رزق غير مباشر؛ لأنك تشتري به ما تنتفع به. وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هي رزق مباشر، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء، وأنتم تعلمون أن البائع يعطي سلعة ويأخذ ثمناً، والشاري يعطي ثمناً ويأخذ سلعة، والحق سبحانه يقول:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤].

فالمؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء، ومنزلة الشهداء؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال بعدها: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١].

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة، فكل منا في حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطي شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه؛ ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى:

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

هنا أيضاً تجارة، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشيء الذي تعطيه بالشيء الذي تأخذه ثم فرق بينهما، ما الذي يجب أن يضحى به في سبيل الآخر؟

والحق سبحانه قد وصف الحياة بأنها «الدنيا» ولا يوجد وصف أدنى من هذا، فبيَّن المسألة: إنك ستعطي الدنيا وتأخذ الآخرة، فإذا كان الذي تأخذه فوق الذي تعطيه

فالصفقة ـ إذن ـ رابحة، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية، ولا تقل كم عمر الدنيا؛ لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته فيها، وإلا فإن دامت لغيري فما نفعي أنا؟

إذن: فقيمة الدنيا هي: مقدار عمرك فيها، ومقدار عمرك فيها مظنون، على الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار في القرن العشرين، فالبعض يقول: متوسط الأعمار في أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً، أو فتى، أو رجلاً، أو شيخاً.

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو: مقدار حياته فيها، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين، إنما قارنها بوجودها معك أنت، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تَنعُّمَك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود.

والإنسان منا يظل يُربَّى إلى أن يبلغ الحُلُم، فإذا ما بلغ الحُلُم وأصبحت له حياة ذاتية، أي: أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم، بينما في طفولته كان كل اعتماده على أسرته، أبوه يأتي له بالملبس فيلبسه؛ وبالمطعم فيأكله، ويوجهه فيتوجه، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول

لأبيه: هذا اللون لا يعجبني! والأكل هذا لا يعجبني!! هذه الكلية لن أذهب إليها. ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن يُنْسِل مثله، فإذا ما أصبح كذلك نقول له: هذا هو النضج، وهو الذي يجعل لك قيمة ذاتية.

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ، فأنت ترعاها سقياً وتنظيماً وتسميداً، وهي ما زالت صغيرة وتتعهدها كي لا تخرج مشوهة، حتى تنضج، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة «البطيخة»، فيقال: صار لها ذاتية؛ لأنك إن شققتها لتأكلها تجد «اللب» قد نضج، وإن زرعته تأتي منه شجيرة أخرى.

ولكن إذا قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد «اللب» أبيض لم ينضج بعد، فلا تصلح تلك البذور لأن تثمر مثلها، وإذا كان «اللب» نصفه أبيض ونصفه أسود، فهي لم تنضج تماماً، أما إذا وجدته أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة. فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الناس أكل الثمرة قبل أن تُربى وتنضج البذور ولانقطَعَ النوع؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمر إلا بعد أن تنضج البذور، وكذلك الإنسان، والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع في البيت ويرى هذه وهذه، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالي الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل، إنّه سيقضي مراهقته في التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع، ثم لنسأل: كم سنة سيتمتع؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات.

إذن: فالحياة محدودة، والمتعة فيها على قدر إمكاناته، فقد يسكن في شقة من حجرتين أو في شقة مكونة من ثلاث حجرات، أو في منزل خاص صغير أو حتى في قصر، وقد يركب سيارة أو يمشي على قدميه، باختصار على قدر إمكاناته، أما في الآخرة فالموقف مختلف تماماً، سيسلِّم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل اللَّه وقدرته، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة، فتكون هذه هي الصفقة الرابحة التي لا تبور.

ولماذا يدخل اللَّه العبد في عملية البيع هذه؟ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل في عملية البيع التي تجهدك إن لم تَقْتُل أو تُقْتَل في سبيل اللَّه لا بد أن يوضح لك كيفية الغاية التي تأخذ بها الفوز في الآخرة، ولن تأخذ هذا الفوز بالكلام فقط، ولكن انظر إلى المنهج الذي ستقاتل من أجله، إنّه تأسيس المجتمع الذي يؤدي كل امرؤ فيه الأمانة، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبني جسمه من كدِّهم وتعبهم، وهات مجتمعاً لا يؤمن باللَّه وقل: يا أيها الناس نريد أن يؤدي كل واحد منكم الأمانة التي عنده، نريد أن نحكم بالعدل، فسيفرح أهل هذا المجتمع.

إذن: فلكي نحمي المجتمع لا بد أن نؤدي الأمانة وأن نقيم العدالة. ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلٰهاً واحداً فلا نتشتت، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين، واليتامى والمساكين.

قل لي باللَّه عليك: لو لم يكن هذا ديناً من السماء، وكان تشريعاً من أهل الأرض، أهناك أعدل من هذا؟

إن مثل هذا المنهج الذي يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه. وقبل أن يفرض علينا القتال بيَّن الحق سبحانه: هذا هو المجتمع الذي ستقاتلون من أجله،

واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال، أقصى ما فيها أن تُقتل، فستأخذ صفقة الآخرة، وقصرت مسافة غاياتك؛ لأن كل شيء إنما يقاس بزمن الغاية له، فإن قُتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية، فتصل إلى الجنة. والحمق قد يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون في الحزن. نقول لهم: ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية، فلماذا الغرق في الحزن إذن؟

والحق سبحانه وتعالى يكافئ من يُقتل في سبيل اللَّه بحياة في عالم الغيب وفيها رزق أيضاً. وبعض الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق. ونقول لهم: إن الحق لم يقل: إن الشهداء أحياء عندكم، بل أحياء عنده في عالم الغيب. والحق سبحانه يطلب من الذي اقتنع بالإسلام أن ينشره، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتنصلح أمورهم، وأن يواجهوا أصحاب الشر الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء، وسبحانه حينما يقول: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا يدلنا على أن

هناك قتالاً في غير سبيل اللَّه، كأن يقاتل الرجل حمية، أو ليُعلم مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حسب نيته، ولذلك تساءل بعض الناس: من الشهيد؟ قال العلماء: هو من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فيكون شهيداً. إذن: فالقتال مرة يكون في سبيل اللَّه، ومرة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

يقول الحق سبحانه: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ أي: يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة، ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

إذن: فالذي يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين: إما أن يُقْتل من الأعداء، وإما أن ينتصر، وهذه هي القضية الجدلية التي تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر: أنا أقاتل لإحدى الحُسنيين: إما أن أُقْتل فأصبح شهيداً آخذ حياة أفضل من هذه الحياة، وإما أن أنتصر عليك، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شيء؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم، وإما أن ينتصر، والحالتان على سواء من الخير.

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعاً بالدين، فكل واحد يحب نفسه، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى في الدين، ولذلك يقولون: لا تكن أنانياً رخيصاً بل عليك أن تكون أنانياً غالياً، والدين هو ممارسة لأنانية عليا.

ونضرب هذا المثل ـ وللَّه المثل الأعلى ـ الذي ليس معه إلا جنيه واحد وهو يحتاج إليه ثم رأى إنساناً في حاجة ماسة، فيقول المؤمن لنفسه: لقد أكلت، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد؛ فلأعطه الجنيه.

باللَّه أهو يحب الذي أخذ الجنيه أكثر من نفسه؟ لا، بل هو يحب نفسه، لكنها أنانية عليا؛ أنانية معلاة. وسبق أن قلنا: إن الذي يجلس ويرى امرأة جميلة فغضَّ عينه أمرُه يختلف عن واحد آخر يحدِّق وينظر إليها بشدة، فأيهما يحب الجمال أكثر؟ إن الذي غضَّ بصره هو من يحب الجمال أكثر؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط، بل يريدها مستديمة.

فما بالنا بالذي يبيع الدنيا ويقتل في سبيل اللَّه ويأخذ الآخرة التي ليس فيها قتل أو أي شيء مكدِّر؟ إذن؛ فهذه أنانية عليا، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية،

لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالي.

ولقد رأى رسول اللَّه ﷺ الذين يقاتلون في سبيل اللَّه وعرض عليه منظرهم وهو في ليلة الإسراء والمعراج، رأى النبي ﷺ جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة؛ لأن الذي قتل في سبيل اللَّه إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة اللَّه، فلا ينتهي قطفه أبداً للخير الذي بذله، وحياته مستمرة في حياة الملايين. ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل في سبيل اللَّه إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق سبحانه في قوله:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً، وإما أن يَغلب معسكر الكفر، وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم اللَّه بعذابٍ من عنده أو بأيدي المؤمنين، إذن: فالمؤمنون رابحون على كل حال، والكافرون خاسرون على كل حال.

و«أبو العلاء المعري» قبل أن يهديه اللَّه كان متشككاً وقال:

تُحطِّمنا الأيامُ حتَّى كأننا زُجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لنا سَبْكُ

فقالوا: إنه ينكر البعث، فما دام قد جاء بمثل يقول فيه: إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى، قال ذلك أيام تكبُّر الفكر والغرور، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فكره وينتهي إلى الإيمان، لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن؟ فلماذا لم يخلِّص نفسه من مرارة تجربة الشك؟ ولكنه بعد أن آمن قال: هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور. ربنا حَقٌّ وربنا سميع وربنا بصير، وقال:

زَعَمَ المُنجِّمُ والطبيبُ كلاهما لا تُحشرُ الأجسادُ قلتُ إليكما
إنْ صَحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخَسَارُ عليكما

أي: إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة في الدنيا، فماذا أكون قد خسرت؟ إنني لن أخسر شيئاً، وإن صحّ قولي وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذي يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما، إذن: فإيماني إن لم ينفعني فلن يضرني، وكلامكما حتى لو صحَّ ـ وهو غير صحيح ولا سديد ـ فلن يضرني.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ

﴿يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ إنه سبحانه يطيل أمد العطاء. انظروا دقة الأداء القرآني؛ لأن الذي يتكلم هو اللَّه، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل، فحين أقول لك: «احضر لي أكرمك»، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام، ولكن إن قلت لك: «إن حضرت إليّ فسأكرمك»، فهذا يعني أن الزمن ممتد قليلاً، فلن تكرم من فور أن تأتي بل أنت تحضر عندي وبعد ذلك بفترة يسيرة يحدث الإكرام.

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإني أقول: «إن حضرت إليّ فسوف أكرمك». إذن: فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل: جزاء يأتي من فور حصول الشرط، وجزاء يأتي بعد زمن يسير تؤديه «السين»، وجزاء يأتي بعد زمن أطول تؤديه «سوف».

ولم يقل الحق سبحانه: من يقاتل في سبيل اللَّه نؤته أجراً عظيماً، ولم يقل: فسنؤتيه أجراً عظيماً، ولكنه قال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا القول سيبقى ليوم القيامة؛ لذلك كان لا بد أن تأتي «سوف» هنا، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع.

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآني، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته يأتي بأساليب كثيرة: فمرة يأتي بأسلوب الجمع، ونحن نقول، كما علَّمونا في

النحو: «النون للتعظيم» كما في قوله سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

لم يقل: أنا أنزلت... فكل شيء يكون نتيجة فعل من أفعال اللَّه تأتيه «نون التعظيم»؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من متعة أو نعيم، يريد صفات كثيرة: قدرة للإبراز، وعلماً لترتيب النعمة، وتدبيراً وحكمة، وبسطاً، فيقول هنا: «نؤتيه»؛ لأن الصفات تتكاتف لتعمل الخير، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤].

وكذلك قوله الحق: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].

فساعة يتكلم الحق سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية، ولا نقلْ بالإفراد تأدُّباً مع اللَّه، فليس له شريك أو مثيل، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتي بالجمع فيقول: «نحن» وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

لقد جاء الحق سبحانه في صدر الآية بـ«أنزل» وكان

يناسبها أن يأتي بعدها «أخرج»، لكنه قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فلماذا هذه «مفردة» وتلك «جمع»؟؛ لأنه ساعة قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل في إنزال المطر، لكن ساعة أن أنزل المطر، نجد واحداً قد حرث الأرض، وثانياً بذر، وثالثاً روى الأرض، وكل ذلك من أسباب خلقه، فلم يهضم اللَّه خلقه فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم بعد ذلك: أنا وخلقي بما أمددتهم ومنحتهم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾. إذن: فلا بد أن ننتبه إلى دلالة الكلمة حين تأتي بالمفرد وحين تأتي بالجمع.

وقوله سبحانه: ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة، فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته في قوة الشاب أو قوة الرجل، فإذا كان الذي يعطي الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره، لكن إذا كان من يعطي هو ربنا، فسيعطي الأجر على قدره، ولا بد أن يكون عظيماً، والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة.

وهناك فرق بين الأجر والثمن؛ فالثمن مقابل العين، أما الأجر فهو مقابل المنفعة، أنا اشتريت هذه، فهذا يعني أني دفعت ثمناً، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن

أخذته لأنتفع به فقط، وجزاء الحق لمن يُقتل في سبيل اللَّه أهو أجر أم ثمن؟، ونلتفت هنا إلى أن الحق قد بيَّن: أنا لم أثمن من قُتِل، بل نظرت لعمله، وجهاده واستشهاده وأعطيته ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾

ويقول الحق سبحانه:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلاً منهم يموت، ولكن الفضل أن يعجل اللَّه انقضاء الحياة في الدنيا لمن يُحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وليس هذا فقط، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء، فالخاصية الإيمانية تقتضي أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه، والشهداء في حياتهم عند ربهم كذلك، مما يدل على أن الحياة التي يحياها الشهداء هي حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من اللَّه تعالى قد فضَّله به؛ ولذلك فالشهيد يستبشر بالذي لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول: يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾: «ويستبشرون» من

البُشرى، والبُشرى هي الخبر السَّار ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ ويلحقوا أي: يأتوا بعدهم، فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا، وما داموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا في النعيم والخير الذي نحيا فيه. وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه، لأنه يعلم قول الرسول ﷺ: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّه لنفسه». وعن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل اللَّه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللَّه بنا لئلَّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب. فقال اللَّه ـ عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل اللَّه هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وما بعدها»[1].

ونعرف أن «البِشْرَ» عادة هو الفرحة، وهي تبدو عَلَى بشرة الإنسان، فساعة يكون الإنسان فرحاً، فالفرحة تظهر وتُشرق في وجهه ولذلك نُسميها «البشارة»؛ لأنها تصنع في وجه المُبشَّر شيئاً من الفرح مما يعطيه بريقاً ولمعاناً وجاذبية.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: أن الذين خُلِّفوا عن الشهادة لا خوف عليهم؛ فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما، فيقول الحق سبحانه على لسان الشهداء لكل منهم: لا تخف لأنك ستذهب لخير في الحياة ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

في هذه الآية يصف الحق سبحانه ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد ﷺ. إذن: فأمة محمد ﷺ هي أقرب الأمم إلى لقاء اللَّه. فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً، لكننا نحن المسلمين قريبون، ولذلك يقول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين».

ولذلك لم يقل الحق سبحانه في هذه الآية: سوف ندخلهم، بل قال: «سندخلهم»، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه «سوف» لأنها بعيدة، أو أن هذا كناية وإشارة من اللَّه لإمهال الكفار ليتوبوا، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغرينا بالطاعة، المسألة ليست بعيدة، بل قريبة؛ لذلك يعبر عنها: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

إن كلمة «الجنة» مأخوذة من «الجَن» والستر، و«الجنة» هي البستان الذي به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره، وهو غير البساتين الزهرية التي تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر، ففيها الاقتيات وفيها كل شيء، فهي تسترك عن أن تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك، فالذي عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شيء هو الآن غيب عنا، وسيصير بإذن اللَّه وبمشيئته مشهداً، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس، ورسول اللَّه ﷺ يقول: «قال اللَّه عز وجل في الحديث القدسي:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» مصداق ذلك في كتاب اللَّه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ونحن نعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه، فقوله: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»، والعين حين ترى تكون محدودة، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية؛ لأنه سيسمع ممن رأى، إنه سمع فوق ما رأى، إذن: فدائرة الإدراكات تأتي أولاً: بأن يرى الإنسان، ثم بأن يسمع، وهو يسمع أكثر مما يرى، وعلى

سبيل المثال قد أرى أسوان لكنني أسمع عن أمريكا، فدائرة السماع أوسع.

وبعد ذلك قوله: «ولا خطر على قلب بشر» أي: أن ما في الجنة أكبر من التخيلات، إذن: فكم صفة هنا للجنة؟ الأولى قوله: «ما لا عين رأت» والعين مهما رأت فدائرتها محدودة، والثانية: قوله: «ولا أذن سمعت» والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً. والثالثة: قوله: «ولا خطر على قلب بشر»، وهذا أوسع من التخيلات، فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا في الجنة: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فبأي الألفاظ يا ربي تؤدي لنا هذه الأشياء، وألفاظ اللَّه سبحانه إنما وضعت لمعانٍ معروفة، وما دامت ستأتي بحاجة لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولا تخطر على قلب بشر، فأيّ الألفاظ ستؤدي هذه المعاني؟

* أنهار الجنة:

لقد أوضح ﷺ: أنّه لا توجد ألفاظ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ، فكل لفظ وضع في اللغة معروف أن له معنى، لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تخطر على قلب بشر، فلا توجد كلمات تعبر عنها؛ لذلك لم يَقُلْ ﷺ: إن الجنة هكذا بل قال:

«مثل الجنة» أما الجنة نفسها، فليس في لغتنا ألفاظ تؤدي هذه المعاني، وحيث إن هذه المعاني لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر؛ فليس في لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة، وبيَّن الحق سبحانه: سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيكم به مثلاً، فقال:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد: ١٥].

ونحن نرى الأنهار، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التي قد تعكِّر نهريتها؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة، فيقول: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، إذن: فهو يعطيني اسماً موجوداً وهو النهر، وكلنا نعرفه، لكنه يبيِّن: سأنزع منه الأكدار التي تراها في أنهار الدنيا، فأنهار الدنيا تسير وتجري في شق بين شاطئين، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة... وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه.

إن العربي كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه في القِرَب، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعي وإلى حيث تسافر، وعندما كان الأعرابي يحتاج إلى اللبن فلم يكن

أمامه غير اللبن المخزَّن في القرب، ويجده متغير الطعم لكنْ لا يجد غيره؛ لذلك يبين الحق: سأعطيكم أنهاراً من لبن في الجنة لم يتغير طعمه، ثم يقول: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا؛ لأنه يقول: «مثل» ولم يقل الحقيقة فقال: أنهار من خمر لكنها خمر ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر فهو يسكبها في فمه مرة واحدة! ليس كما تشرب أنت كوباً من عصير المانجو وتتلذذ به. إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمَّض؛ وتغتال العقول وتفسدها، لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول.

إذن: فحين يعطيني الحق مثلاً للجنة فهو ينفي عن المثل الشوائب، ولذلك نجد الأمثال تتنوع في هذا المجال؛ فالعربي عندما كان يمشي في الهاجرة، ويجد شجرة «نبق» ويقال لها: «سدر» كان يعتبرها واحة يستريح عندها، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها لكنه قد يجد شوكاً فيتفادى الشوك، وفي بعض الأحيان تشكه شوكة، وعندما لا يجد في هذا الشجر شوكاً يقول: هنا «سدر مخضوض» أي: شجرة نبق لا شوك فيها، والحق سبحانه يأتي بكل الآفات التي في الدنيا وينفيها عن جنة الآخرة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى، فبيَّن الحق: ما يعكر عليك العسل هنا في الدنيا أنا أصفِّيه لك هناك، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً، ولماذا مثَّل؟... لأنه ما دام نعيم الجنة «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»... فتكون لغة البشر كلها لا تؤدي ما فيها... لكنه ـ سبحانه ـ يعطينا صورة مقربة، ويضرب اللَّه المثل بالصورة المقربة للأشياء التي تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل، ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير اللَّه للكون، وليس لنور اللَّه الذاتي، بل لتنوير اللَّه للكون، فيقول سبحانه:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ﴾ [النور: ٣٥].

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لغتك ليس فيها الألفاظ التي تؤدي الحقيقة، ولذلك يقول: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وما دامت جنات ففيها شجر ملتفٌّ وعالٍ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون في منطقة فيها مياه؛ لذلك قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾، ومرة يقول: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأن ما يجري تحتها قد يكون آتياً من مكان

آخر، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجري الأنهار تحت جنّتك، وقد تظن أن بإمكان صاحب النبع أن يسدّها على جنتك، فيبين الحق: لا هي جاءت من تحتها مباشرة.

ويقول الحق عن أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم في دنياهم من آثار نعمه عليهم، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة، فقال سبحانه عن جنة الآخرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فلا هي تزول عنهم ولا هم يزحزحون عنها.

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من النعيم الذي يوجد عندنا في الدنيا لكنه يزول أيضاً أو نزول نحن عنه.

﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧] وأزواج جمع «زوج»، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعاً فهو يأتي في الصفة بجمع أيضاً مثل قوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

لأن «قدور» جمع «قدر» ولم يقل هنا: أزواج مطهرات وجاء بها مفردة لأن الرجل في الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فينشأ بين الزوجات المتعددات ظلال الشقاق فكأنهن متنافرات، فقال: إنهن كلهن سيكنَّ أزواجاً على صورة واحدة من الطهر، وليس في أي منهن ما يعكر صفو

الأزواج كما يكون الأمر في الدنيا، ولا يقولنَّ واحد: «كيف تقبل المرأة أن يكون لها ضرة في الآخرة؟» لأن الحق سبحانه ينزع في الآخرة من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس في الدنيا فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

إذن: فكأنهن ـ وإن تعددن ـ في سياق واحد من الطهر مما لا يعكر صفو الزوج، فسيعجبك شكلها وستعجبك أخلاقها؛ فليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد في الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله. إذن فهو يعطيني خلاصة ما يمكن أن يتصور من النعيم في الأزواج.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى فهي تأتي بالتوكيد من اللفظ نفسه، فيقول العربي مثلاً: «هذا ليل أليل» أي: ليل حالك، وعندما يبالغ في «الظل» يقول: «ظليل». وما هو «الظل؟» «الظل» هو: انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدخله الشمس أصلاً كأن يكون الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً.

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون في الصحراء، فساعة يرى الإنسان هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويتمتع بظلها، والظل نفسه قد يكون ظليلاً، مثال ذلك «الخيام

المكيفة» التي يصنعونها الآن، وتكون من طبقتين: الطبقة الأولى تتعرض للشمس فتتحمل السخونة، والطبقة الثانية تحجز السخونة، ويسمون هذا السقف «السقف المزدوج». ويوجد خاصة في الأماكن العالية؛ لأن الشقة على سبيل المثال التي تعلوها أدوار تكون محمية، لكن الشقق الموجودة في آخر دور خصوصاً في البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة؛ لذلك يصنعون سقفاً فوق السقف، وبذلك يكون الظل نفسه في ظل.

ولماذا يسعد الإنسان بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل في جدار؟ لأن الظل في جدار مكون من طبقة واحدة، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً يحجب الهواء، لكن الجلوس في ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة فوقها ورقة، وأوراقها بعضها فوق بعض، وكل ورقة في ظل الورقة الأعلى، وكل ورقة خفيفة يداعبها الهواء؛ فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة الشمس، وتعطيه هواء أيضاً، هذا هو معنى قوله سبحانه: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال:

وَقَانا لَفْحَةَ الرَّمْضَاء وادٍ ... سَقاه مضاعفُ الغيثِ العميم
نَزلنا دَوحَهُ فَحَنَا عَلَينا ... حُنُوَّ المُرضِعَاتِ على الفطيمِ

وأرشفنا على ظَمَأ زُلالاً ألذَّ من المدامَةِ للنديم
يصدُّ الشمس أنّى واجَهَتنا فَيَحْجُبَها ويأذنَ للنسيمَ

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان في صحراء ثم ينزل في وادٍ به دوح وهذا الدوح يحنو على الإنسان حنو الأم على طفلها في سن الفطام. وأنه قد سقاهم من مائه ما يلذ. وتصد الشمسَ عنهم الأشجارُ الكثيفة ولكن النسيم يمر بين أوراق الشجر، وهكذا نفهم كلمة «ظل ظليل»، أي: أن الظل في ذاته مظلَّل.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الغايات التي تنتظر الصنفين من خلقه: الصنف الذي يتأبى على منهج اللَّه، والصنف الذي يتطامن لمنهج اللَّه: الصنف الأول أعد له اللَّه النار التي تشوي جلوده ويبدله جلوداً غيرها ليذوق العذاب، والصنف المؤمن الذي أعد اللَّه له الجنة ذات المواصفات المذكورة، وبعدما يجعل الغاية واضحة في ذهننا من الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد؛ لأن النفس تكون كارهة للنار ومحبة للجنة، وعندما يأتي حكم جديد تتعلق النفس به وتنفذه؛ لأنها قريبة العهد بالترهيب من النار والترغيب في الجنة، فيجعل الحق هذا الأمر مرة تذييلاً لما تقدم، ومرة أخرى يجعله تمهيداً لما يأتي؛ كي تستقبل الأحكام الجديدة في ذهنك وتتضح لك الغايةُ التي تنتظر من التزم، والغاية التي تنتظر من انحرف.

وعندما يأتي الحكم والغاية متضحة في الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع في بؤرة الشعور؛ لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية، ورحمة اللَّه بالخلق أن هذا الرأس الذي فيه حافظة، وفيه ذاكرة، وفيه مخيلة، لا يقدر أن يستوعب كل المعلومات في بؤرة الشعور مرة واحدة، ولا يمكن أن يجيء لك معنى جديد إلا إذا تزحزح المعنى الذي كنت مشغولاً به في ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى حاشية الشعور، فإن بقي المعنى في مكانه فلن يأتي لك خاطر جديد.

إذن: فبؤرة الشعور هي التي فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار في البؤرة الشعورية، ولذلك عندما تريد أن تستدعي حاجة في بؤرة الشعور. فالمعاني تتداعى كي تأتي بما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور، وساعة يأتي ما تريده في بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول.

إياك أن تظن أن العقل البشري يستطيع أن يواجه في بؤرة الشعور كل المعلومات، لا، فمن رحمة اللَّه أنه وضع لشعورك نظاماً تخزن فيه معلوماتك، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها؟ إذن: فهي موجودة لكنها موجودة في الحواشي البعيدة للشعور. وعندما تداعت المعاني خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور؛ ثم تؤدي

مهمتها وتذهب؛ وتأتي أخرى في بؤرة الشعور.

إن هذا الذهن البشري فيه قوة وطاقة يختزن فيها الأحداث، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس، فهناك من يحفظ قصيدة بعد قراءتها عشر مرات، وهناك ذهن يحفظ من مرتين، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات. إن الذهن كآلة التصوير «الفوتوغرافي» يلتقط من مرة واحدة، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط، فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تلتقطها.

أنت تكرر القصيدة أو الآية أو الكلمة كي تحفظها؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة، لكنك لا تحفظ النص؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتخطف التركيز، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بؤرة الشعور؛ لذلك يقولون: هناك طالب يحفظ ببطء، وآخر يحفظ بسرعة، إن الذي يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذي لا يركز فإن حفظه يكون بطيئاً.

وأضرب هذا المثل، وقد يكون أغلبنا مرّ به، وخصوصاً من تعرَّض للعلم وللامتحانات: هب أنك طالب في امتحان،

وبعد ذلك دق الجرس لتدخل مكان الامتحان، ثم جاء زميل وقال لك: القطعة الفلانية سيأتي منها سؤال، وأنت لم تكن قد ذاكرتها، هنا تخطف أي كتاب وتقرؤها بإمعان، فهل أنت في هذه الحالة تفكر فيما ستأكل على الغداء؟ أو تفكر فيمن كان معك بالأمس؟ لا؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا في هذه القطعة التي تقرؤها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً في القطعة التي ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة، وقد لا يعرفها من ذاكرها لمدة شهر؛ لأنه ذاكرها وباله مشغول، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس في ذهنك غيرها؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها.

ومثال آخر: نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذاً آخر يفهم، والتلميذ الذي لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه في أثناء الشرح في مسألة بعيدة عن العلم الذي يدرسه، وعندما يجيء درس جديد، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبنى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها، فلما شرح المدرس الدرس الجديد، قال التلميذ الذي لا يفهم: ماذا يقول هذا المدرس؟ لكن التلميذ المنتبه له والذي يربط المعلومات بعضها ببعض؛ يفهم ما يقوله المدرس، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثير الانتباهات دائماً

لطلابه، بمعنى أن يفاجئهم، يقول مثلاً: جزءاً صغيراً من الدرس ثم يقول لتلميذٍ: قم، ماذا قلت الآن؟ فيجلس كل تلميذ وهو عُرضة أن يُسأل؛ فيخاف أن يُحرجه الأستاذ، فينتبه للدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً.

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً في بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك، ولذلك تجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتي بأمهات الأحكام التي إذا نفذوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار.

لقد بيَّن المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب وعقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيماً مثل الذي نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحي ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا اللَّه عز وجل بشيء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده اللَّه.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف، وصحيح أن اللَّه سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم في

الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا، قال الحق جل جلاله:

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ١٣].

إذن: فاللَّه عز وجل يعطي مثلاً فقط، ومعلوم أن اللفظ في اللغة لا بد أن يوضع لمعنى معروف؛ ولذلك فعندما يحدثنا اللَّه عن نعيم الجنة لا بد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه، ورسول اللَّه ﷺ قال عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

إذن: فلا توجد في اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن اللَّه أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التي تكون في المثل. فمثلاً الخمر في الدنيا فيها خصلتان؛ **الأولى**: أنها تغتال العقول[1] **والثانية**: أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذي يشرب الخمر لا يشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذي يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس في فمه

(١) تغتال العقول: تسْكرها وتذهب بها.

دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعي الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر في الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسي من موقع قدمي» هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر في الجنة لا غَوْل فيها.. أي: لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها اللَّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

أي: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التي حرمها اللَّه في الدنيا، وتتجلى الحكمة في معنى الاستطعام في قول رسول اللَّه ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا للَّه، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يُلْقَى في النار»[(١)].

ومن رحمة اللَّه تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط، بل يغري الناس على وقود الطاعة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري (١٦). ومسلم(٤٣) عن أنس بن مالك.

تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام، فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب في اللَّه ويكره في اللَّه؛ فذلك يعطيه الطاقة التي تستبقي إيمانه؛ كما تستبقي طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يعطينا في تصوير الجنة المثل لما في الجنة، لا بتشخيص وتحديد لما في الجنة فعلاً، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً، فهي لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها اللَّه تعالى بواقع الجنة فهي لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

إذن: فهو رزق يشبه الرزق الموجود في الدنيا ولكن ليس هو، أما أن يقال: إن نعيم الجنة هو النعيم الروحي أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛

فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقي، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أي: سيكون عذاب الخواطر، وفي هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه في الدنيا، وإلا ما وجد في أنفسنا ما يجعلنا نرغب في نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار؛ لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق، وشاء اللَّه سبحانه أن يصفي النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

أي: ليس فيها كل الشوائب الموجودة في عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥].

وكلمة ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لها عند العرب أيام رسول اللَّه ﷺ معنى؛ لأن العربي كان يحلب الجمال ويضع ألبانها في الأواني، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من

كل الشوائبِ التي تفسد طعم اللبن في الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: الإيمان الواجب بعظمة اللَّه وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً باللَّه، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه في قصعة من الزمرد ثم استنكف اللَّه أن يمد يده لبني إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال اللَّه ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ في التصور، وكذلك كان خطؤهم في تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥د ١٦٨].

أي: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أي: ارتقوا فوق مقام الإيمان ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول:

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

وسبحانه لا يطلب منا في فروض الدين ألا نهجع إلا قليلاً من الليل، بل نصلي العشاء وننام إلى الفجر، لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجَّد فذلك زيادة عما فرض اللَّه ولكنه من جنس ما فرض اللَّه. وكذلك الاستغفار فمن

تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج، فهنا زيادة في العطاء على ما فرضه اللَّه من الزكاة التي حُدِّدَتْ من قبل في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ [المعارج: ٢٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو في مقدور النفس وليس فوق طاقتها؛ لذلك بيَّن لنا سبحانه أنه كلف بـ«افعل» «ولا تفعل» وذلك في حدود وسع المكلَّف.

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق سبحانه قد قال في أهل النار:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فهم لن يدخلوا الجنة، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً، ولا يتوقف الأمر على ذلك، ولكنهم يدخلون النار، إذن فهنا أمران: سلب النافع وهو دخولهم الجنة، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم، وذلك جزاء إجرامهم. وبعد ذلك كان إدخالهم النار، وهذا جزاء آخر؛ فقال الحق:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

في الأولى قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

وفي الثانية قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

فكأن الإجرام كان سبباً في ألا يدخلوا الجنة، والظلم كان سبباً في أن يكون من فوقهم غواشٍ، ولهم من جهنم مهاد، وهم في النار يحيطهم سرادقها.

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التي تُكرِّهنا في أصحاب النار وفي سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً، وبسبب بشاعة جزائهم ثانياً؛ أن نتلهف على المقابل. فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جاء بين المبتدأ والخبر، ككلام اعتراضي؛ لأن الأسلوب يقتضي إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود في الجنة، وجاءت ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر؛ لأننا حينما نسمع ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذا عمل قلبي، ونسمع بعده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذا عمل الجوارح، وبذلك ـ أي: بعمل القلب مع عمل الجوارح ـ يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة.

والاعتقاد هو ما يسهل دائماً السلوك الإيماني ويجعل مشاق التكاليف في الأعمال الصالحة مقبولة وهيِّنة؛ ولذلك بيَّن سبحانه: إياكم أن تظنوا أني قد كلفتكم فوق طاقتكم، لا؛ فأنا لا أكلف إلا ما في الوسع، وإياكم أن تفهموا قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هو رغبة في إرهاق نفوسكم، ولكن ذلك في قدرتكم لأن اللَّه سبحانه هو المشرع، والمشرع إنما يضع التكليف في وسع المكلَّف.

ونحن في حياتنا العملية نصنع ذلك؛ فنجد المهندس الذي يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدرتها، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد. وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تطيق، أيكلف الذي خلق البشر فوق ما يطيقون؟ محال أن يكون ذلك.

إذن: فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر، ولكن علق الوسع على تكليف اللَّه، فإن كان قد كلف فاحكم بأن ذلك في الوسع؛ والدليل على كذب من يريد الإفلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو؛ أنّ غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله. فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر اللَّه، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل، فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف.

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ« افعل ولا تفعل » وسبحانه لا يكلف الإنسان إلّا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع؛ لأن اللَّه لا يكلف إلا على قدر الطاقة، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت: طعام، وشراب، ولباس، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة، ولذلك بيَّن سبحانه أن يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية، وإياكم أن تظنوا أن اللَّه حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً، ولكن الإنسان هو الذي يضع نفسه في موضع الشطط، فقال:

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق: ٧].

﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ضيق عليه قليلاً.

ويقول سبحانه: ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٧].

إذن: لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور، بل انظر إلى الوارد إليك وعشْ في حيز وإطار هذا الوارد، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوي دخلك؛ لأن اللَّه لا يكلفك إلا ما آتاك.

ولننظر إلى ما آتانا اللَّه؛ لذلك لا تدخل في حساب الرزق إلا ما شرع اللَّه، فلا تسرق، ولا تنهب، ولا تختلس ولا ترتشِ ثم تقول: هذا ما آتاني اللَّه، لا، عليك ألا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل اللَّه لك، فإن عشت في نطاق ما أحل اللَّه فسيعينك اللَّه على كل أمرك وكل حاجاتك، لأنك تحيا بمنهج اللَّه؛ فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما آتاك اللَّه، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك. وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك اللَّه قدراً محدوداً من المال، وترى الكثير من الخيرات، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاقتك، وكذلك يحسّن لك اللَّه ما في طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك؛

لأن اللَّه لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه، فالجنة تتطلبهم، وهم يتطلبون الجنة، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة، وإذا لم تمت فأنت تخاف أن تتركك النعمة؛ لأن الدنيا أغيار، وفي ذلك لفت لقضايا اللَّه في كونه، تجد الصحيح قد صار مريضاً، والغني قد صار فقيراً، فلا شيء لذاتية الإنسان. وبهذا يعدل اللَّه ميزان الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق، ونجد الذي لا يتأبى على قدر اللَّه في رزقه وفي عمله يجعل اللَّه له بعد العسر يسراً. وفي الجنة يُخلي اللَّه أهلها من الأغيار؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله الحق: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ ينطبق ـ أيضاً ـ على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم في الدنيا، واختلفوا، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس في صدر أحدهم غل ولا حقد. ولذلك تجد سيدنا الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم اللَّه وجهه ـ حين يقرأ هذه الآية يقول: «اللهم اجعلني أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء» لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة الخلافة، وكل منهم صحابي ومبشَّر بالجنة، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم في دار الجزاء في الآخرة؛ لأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾.

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال، ونشأ عن ذلك في أغيار الدنيا شيء من عمل القلب، فبيَّن سبحانه: إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم في الآخرة؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات اللَّه، وفي الآخرة لا اجتهاد لأحد. ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية، ومثال ذلك: تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس اللَّه في الزواج؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً، أو

لأن والدها له جاه أو غنى، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنيّ شيئاً من ماله فيقول: غشَّني وزوجني ابنته، أو كانت جميلة، ثم لقي فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها، ونقول لمثل هذا الرجل: ما دمت لم تأخذها بمقاييس اللَّه فعليك أن تنال جزاء الاختيار.

ولكن من تزوج امرأة على دين اللَّه، ووجد منها قبحاً، فلن يصحبه هذا القبح في الآخرة، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات، ولم يأت بها في الأبناء أو في البنات، بل في الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة؛ فبيّن للرجل: إياك أن تتخيل أن المرأة التي غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها في الآخرة، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥].

وأزواج مطهرة من الأشياء التي كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير اللَّه لها.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ونجد الحق يقول مرة: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ ومرة يقول: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ونجد «مِن» فارقاً بين القولين. إننا نرى من يستقر في قصر ونجد الماء منساباً حوله

وتحته يسر العيون، وماء الآخرة هو ماء غير آسن، وليس فيه أكدار الدنيا، وكما أننا نسر بالماء في الدنيا سنسر به أضعاف ذلك في الآخرة. وقد تجري المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه، ويطمئن الحق عباده الصالحين: ستجري من تحت جناتكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن؛ لأن كل شيء ممسوك لا بالأسباب كما في الدنيا، ولكن بـ«كن» التي هي للَّه، ولذلك يقول العباد في جنة الأخرة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

إنهم يقولون: الحمد للَّه لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلَّهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات، والحمد للَّه هي عبادة يقولها المؤمون في الآخرة؛ لأنهم أدوا حق اللَّه في تكاليفه في الدنيا ويعطيهم اللَّه فوق ما يتوقعون في الآخرة، ونعيم الآخرة لا قيد عليه، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما في الجنة؛ لأن الشيء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك.

وهذا الحمد للَّه كان في الدنيا عبادة تكليف، أمّا في

الآخرة فهو عبادة غبطة وسرور وتلذذ. ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

يقولها المؤمن: لأن اللَّه لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة. والهداية ـ كما قلنا ـ هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية، إذن: لا بد أن تعرف الغاية أولًا ثم تضع الطريق الموصل لها، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة، وقوله الحق: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية؛ لذلك يبيِّنها لهم خالقهم بمنهجه المنزَّل على رسوله ﷺ.

وما دامت الهداية من اللَّه فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات اللَّه ويوضحون لنا المنهج؛ لذلك يأتي الحق في الآية نفسها بقوله الحكيم:

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك: إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشي إلى المكان الفلاني واذهب إليه عن الطريق الفلاني، وستجد نفسك سعيداً

مرتاح البال، ثم صدقته ونفذت ما قال، ووجدت الرجل صادقاً، ألا تشعر بالسعادة؟ وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم؛ لذلك كان لا بد أن يشكروا اللَّه وأن يقولوا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاؤوا بالخير لهم ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وكأن الحق يبين لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه في الجنة؛ بقربه من منهج اللَّه أو بعده عنه؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق. ووقف العلماء هنا ـ جزاهم اللَّه خيراً ـ وقالوا: كيف نوفِّق بين هذه الآية:

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣].

وبين قول الرسول ﷺ: «لن يُدخِل أحداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ».

قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟

قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه بفضل ورحمة»[(١)].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق والمرضى، ومسلم في صفات المنافقين، والترمذي في الجنائز، وأبو داود في الجنائز، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده ٦/ ١٢٥.

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول اللَّه سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق ﷺ الذي بلَّغ عن اللَّه سبحانه، بل بينهما تأييد؛ فالحق ساعة ما شرع بيَّن أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحدٌ اللَّه عليه، بل هو سبحانه الذي يعطيه لنا فضلاً منه؛ فليس لأحد حق على اللَّه؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على اللَّه، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من اللَّه. وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثي ونص قرآني، يقول سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنّه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهي من الفضل؛ لأن الحق هو القائل:

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وسبحانه أيضاً هو القائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

إن فهمت اللغة وكنت صاحب مَلَكَةٍ بلاغية تقول: هذه

«اللام» للملك، وتفيد أنه لا حق لك على اللَّه إلا بسعيك على وفق منهج اللَّه، وأنّ هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلي على الميت المسلم، وقد أمرنا التشريع بذلك، وأن ندعو اللَّه أن يتجاوز عن سيئاته، فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئاً زائداً عن عمله؟ لو لم تكن هذه الصلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها، فهي صلاة على ميت مسلم، وإسلامه من عمله، ونجد الحق يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [الطور: ٢١].

أي: أن الآباء والأبناء يشتركون معاً في الإيمان وفي العمل، وقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء. وهذا الإلحاق جزاء للذرية، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء؛ فيحضر لهم أولادهم معهم ما دام الكل قد اشتركوا في الإيمان، وكان الآباء يتحرون الحلال في إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج اللَّه. وقد يرى الأب أبناء جار له

يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال.

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

و«أورثتموها» من «الإرث» وتدل على أن هناك شيئاً إلى الغير. ونعلم أن اللَّه علم أزلاً كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه في الجنة على أنه مؤمن، وأعد لكل واحد من خلقه مكاناً في النار على أساس أنه سيكفر.

إذن: فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه، وأعدَّ أماكن في الجحيم بعددهم، فليست هناك أزمة أماكن عند إلٰه قادر مقتدر. فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة، إن كفر الخلق جميعاً ـ والعياذ باللَّه ـ فلن تضيق بهم النار. فإذا كانوا جماعة من الخلق سيدخلون الجنة بالعمل الصالح، فأين تذهب أماكن أهل النار؟ إن الحق بفضل منه

يمنحها المؤمنين. إذن: فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر.

يقول الحق سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

هذه قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم اللَّه في هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم، والبشارة ـ كما نعلم ـ هي نوع من الإعلام بشيء سوف يأتي مستقبلاً، أي: أنك حين تبشر إنساناً فأنت تخبره بشيء قادم يسره.

إذن: ففائدة البشارة أن تغري الإنسان بسلوك السبيل الذي يحققه، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة، ويشجعك كلامي لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التي توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا: إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر؛ لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب في الجواب؛ كقولك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب في الشرط لأنك لا تذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل ما يحققه لك من فرحة، إذن: فالشرط

سبب في وجود الجواب واقعاً. والجواب سبب في وجود الشرط دافعاً، أي: أن الدافع لمذاكرتك هو ما يمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب في النجاح، لكن النجاح لا يتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التي تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لا تذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته وبفرح أهلك بك، وبفرحك بنفسك؛ ولهذا نقول: إن السبب هو الذي يوجد أولاً في الذهن.

ومثال آخر: لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف؛ فتكون الطائف هي الغاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفي ذهنك الغاية، إذن: فالجواب يوجد دافعاً، والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي: يخبرهم بالنهاية السارة التي سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التي يأمرهم بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره[1]، ولأن التشريع الإلٰهي تقييد لحرية الاختيار في

---

(١) عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذي في سننه (٢٥٥٩) وقال: حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

العبد، والمؤمن مقيد بأوامر اللَّه تعالى في «افعل ولا تفعل». ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه في كل حركاته، ويفعل ما يشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن بحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من اللَّه تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى اللَّه به. فكأن الإيمان جاء ليقيد.

ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذي يتبع شهواته في الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره في الدنيا محدود، إذن: فهو الخاسر؛ لأن الذي قيد حركته بمنهج اللَّه يأخذ اطمئناناً في الدنيا ونعيماً مقيماً لا يزول ولا ينتهي في الآخرة. والمثال الذي أضربه دائماً: هو الطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر، ولكن يقضي وقته في اللعب واللهو، وهو قد أعطى نفسه ما تريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش في شقاء بقية عمره.

أما الذي قيَّد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه في اللعب واللهو؛ وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلاً مريحاً بقية عمره.

إذن: فكل من الطالب الذي يجتهد وذلك الذي يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لوناً من المتعة، ولكن أحدهما

أخذ متعة قصيرة جداً ثم أصبح من صعاليك الحياة، أما الثاني فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت في الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لا تفعل» فظاهر الأمر أنك قيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك برضاً، فاللَّه يعطيك راحة واطمئناناً ومتعة في النفس؛ ولذلك نجد الصلاة وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضاً من الوقت كل يوم، ولكنها تعطي راحة نفسية، كما أنها تعطي اقتناعاً يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها، وكان ﷺ يقول: «يا بلالُ أرِحْنَا بالصلاة»(١).

كما قال ﷺ ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: «وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة»(٢).

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) حديث أنس أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي في سننه (٧/ ٦١) والحاكم في مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وتمام الحديث «حبب إليَّ من الدنيا النساء والطيب...».

وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم ﴾، تجد البشارة هنا آتية من ربٍّ خالقٍ، والرب هو المالك؛ والمدبِّر الذي يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة: ٢١].

والرحمة والرضوان من صفات اللَّه وهي صفات ذاتية في اللَّه، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١].

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ في النعمة، فقد بشَّرهم اللَّه سبحانه أولاً بالرحمة، وهي ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة في الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقاً بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلاً ـ وللَّه المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان في بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لا بد أن يكون التفاح في الطبق يكفي كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين، فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهي تمثل الرحمة والرضوان، أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً في التكريم، والمؤمنون حين يرتقون في درجة الإيمان؛ يعيشون دائماً مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم اللَّه»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمد للَّه»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر في الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهي اللَّه بعباده الملائكة[١]؛ يباهي بعبادتهم وطاعتهم التي يلتزمون بها على أي حالة يكونون عليها، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية؛ ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[٢]؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبدَ اللَّهَ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٨٠١) عن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أبشروا... هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة. يقول: انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى» وقد أخرج نحوه أحمد في مسنده (٢/ ١٩٦)، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص. قال الترمذي: حسن صحيح.

ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد فسوف يرتقي في الجنة ليرى وجه اللَّه في كل وقت؛ وأما الآخرون فيرون لمحات، ولذلك يكون الجزاء في الآخرة على قدر العمق الإيماني للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال أحد الصالحين: «إني لا أشرك بك أحداً حتى الجنة؛ لأن الجنة أحد».

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد تُرحَم ولكنك لا تنال الرضوان، فبيَّن المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

ولقائل أن يقول: هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذُكِرَ النعيم؟ والجنة وجدت أصلاً لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل: انتبه والتفت جيداً إلى المعنى، فالمتحدث هو اللَّه سبحانه وتعالى، وقد يكون

عند الإنسان نعمة واسعة، ولكنه يحيا في الكثير من المنغصات، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاقٍّ يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدراً ونكداً، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة اللَّه؛ لأن المكدرات قد أحاطت به.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هي صفاء واستمتاع، يعطي فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم تنتهي، وشاء اللَّه ـ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدي في الجنة، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٢].

وهذا ما يؤكد الاطمئنان في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لَهُمۡ﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم؛ ولذلك مهما تملك الإنسان في هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لا يتجاوز حدود أن يجلس ويقوم الخدم

بتنفيذ أوامره؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك.

وعلى سبيل المثال: حين تريد أن تأكل؛ فإما أن تعد الطعام لنفسك، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتي من ملك بإمكانه أن يحقق كل ما يريده بيده، بل لا بد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن في الجنة ينال ما يتمناه بمجرد أن يخطر الشيء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا؛ لأنك حين ترغب في شيء في دنيانا، لا بد أن تقوم به بنفسك، أو تعتمد على غيرك لينفذه لك، حتى وإن كان ما تطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر، أو بقليل من السكر، أو بكثير من السكر؛ لأن كلاً منا في الدنيا إنما يحيا مع أسباب اللَّه، ولكن المؤمن في الجنة إنما يحيا مع المسبِّب وهو اللَّه القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع، وهي كما علمنا من قبل تقتضي القسمة آحاداً، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاماً، بل يخرج كل تلميذ قلمه. وإذا قلنا: اركبوا سياراتكم فليس معنى هذا أن

يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّتِ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى المقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التي اكتسبها والمنزلة التي وصل إليها[١].

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسداً من صاحب الجنة متوسطة المنزلة، وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره، وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحياناً في الدنيا حين يتفوق إنسان في دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو ما يحدث في الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذي (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح، وأبو داود في سننه (١٤٦٤).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

أي: أن كلاً من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه؛ لأنه سينال من فيوضات الخير، التي عند الأعلى منزلة. عندما يأتي لزيارته وقد قالوا في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

إن كل من علت منزلته في الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنه مَضْيَفة لمن يحبهم، إذن: ففي الآخرة يفرح أهل الجنة بمن هم أعلى منهم؛ لأنهم سينالون منهم خيراً.

وفي الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلا بد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها؛ لأنها تعرف أن اللَّه قد أرسلها إليه، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهي التي تعطيك نتاجها. ولست أنت الذي تنتزعه منها، ولذلك نقول دائماً: إن الرزق يعرف عنوانك جيداً ولكنك لا تعرف مكانه أبداً، فأنت تبحث عن الرزق في كل مكان

وقد لا تجده. ولكن ما قسمه اللَّه لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتماً.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم؛ «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابي حتى يستحق بشارة رسول اللَّه ﷺ بالجنة. قالوا له: نحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إني لأصلي كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكّي كما تزكّون، ولكني أبيت وليس في قلبي غل لأحد. فذهبوا إلى رسول اللَّه ﷺ وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال ﷺ: «وهل فُضِّلَتْ الجنة على الدنيا إلا بهذا»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك في الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمي في المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال: «رجال أحمد رجال الصحيح» وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبد اللَّه بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه اللَّه إياه. فقال عبد اللَّه: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

فاللَّه سبحانه وتعالى يقول فيها:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر: ٤٧].

ويقول سبحانه:

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٥].

إنها كلمة الحق التي تقال في كل مكان وزمان. قالها نجاشي الحبشة وله سلطان لأهل الجاه من قريش الذين استبد بهم باطلهم؛ لذلك كان لهذه الكلمة وزنها، فعندما سمع ما نزل من القرآن من سورة مريم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. إذن فهي كلمة حق لها وزن، واللَّه سبحانه وتعالى يجزل العطاء لكل من ساند الحق ولو بكلمة فهو سبحانه «الشكور» الذي يعطي على القليل الكثير، و«المحسن» الذي يضاعف الجزاء للمحسنين.

ولنا أن نعرف أن للقول أهمية كبرى لأنه يرتبط من بعد ذلك بالسلوك. وكان قول النجاشي عظيماً، لكن العمر قد قصر به عن استمرار العمل بما قال. فقد قال كلمته وجاءه التوكيل من رسول اللَّه ﷺ ليعقد للرسول ﷺ على أم حبيبة بنت أبي سفيان فعقد عليها وكيلاً عن رسول اللَّه ﷺ وأمهرها من ماله ثم مات، ولم تكن أحكام الإسلام قد وصلت إليه ليطبقها؛ لذلك كان يكفيه أنه قال هذا القول،

ولذلك صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

وهناك قصة «مخيريق» اليهودي. لقد تشرب قلبه الإسلام وامتلأ به وكان في غاية الثراء فقال لليهود: كل مالي لمحمد وسأخرج لأحارب معه. وخرج إلى القتال مع رسول اللَّه ﷺ، فقُتِلَ فمات شهيداً، وهو لم يكن قد صلى في حياته كلها ركعة واحدة. إذن: فمجرد القول هو فتح لمجال الفعل.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ والحق سبحانه يريد أن يؤكد لنا أن كل حركة إيمانية حتى ولو كانت قولاً إنما تأخذ كمالها من عمرها. ونعلم أن الإيمان في مكة كان هو الإيمان بالقول؛ ذلك أن الناس آمنت ولم تكن الأحكام قد نزلت، فغالبية الأحكام نزلت في المدينة. وعلى ذلك أثاب اللَّه المؤمنين لمجرد أنهم قالوا كلمة الإيمان. حدث ذلك ولم يكن قد جاء من الحق سبحانه الأمر بالبلاغ الشامل وهو قوله الحق:

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فهؤلاء قد جزاهم اللَّه حسن الثواب وسمّاهم «محسنين» وكذلك فعل النجاشي، فقد ذهب إلى الإيمان دون أن توجه له دعوة وكان ذلك قبل أن يكتب رسول اللَّه ﷺ الدعوة للملوك ليؤمنوا، وعلى هذا فالنجاشي محسن؛ لأنه قفز إلى

الإيمان قبل أن يطلب منه. وساعة يتكلم الحق عن منزلة من منازل الإيمان فهو أيضاً يتعرض للمقابل، وذلك لتبلغ العظة مراميها الكاملة. فإذا تحدث عن أهل الجنة فهو يعقبها بحديث عن أهل النار، وإذا تحدث عن أهل النار فهو يعقبها بحديث عن أهل الجنة؛ لأن النفس الإنسانية تكون مستعدة للشيء ومقابله.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

وجاء الحق بالتعليل وهو: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦].

ووجه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه اللَّه به، بل يزيد على ما كلفه اللَّه من جنس ما كلفه سبحانه، فالحق قد فرض على المسلم خمسة فروض، والمحسن هو من يزيد ويتقرب إلى اللَّه بالنوافل. وفَرَضَ الحق سبحانه على المسلم صوم رمضان، والمحسن هو من يؤدي صيام رمضان بتمامه ويزيد بصيام أيام أخرى من العام. وفرض اللَّه سبحانه على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف في المائة وهو ربع العشر، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك. وفرض اللَّه سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، والمحسن هو الذي يزيد مرات الحج.

إذن: فالمحسن هو من عشق التكليف من اللَّه، وعرف منزلة القرب من اللَّه، فوجد أن اللَّه قد كلفه دون ما يستحق ـ سبحانه ـ منا فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من اللَّه. ويضيف الحق في وصف المحسنين:

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

ولم يكلفنا سبحانه بألا نهجع إلا قليلاً من الليل. كلفنا فقط بأن نصلي العشاء، وبعد ذلك قد ننام لنصحو لنصلي الصبح، أما المحسن الذي عرف حلاوة الخلوة مع اللَّه فهو لا يهجع إلا قليلاً من الليل. ويضيف الحق سبحانه في وصف المحسنين:

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨].

ولم يكلف اللَّه المسلم بالاستغفار في السَّحَر، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه:

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩].

ولم يقل سبحانه: إنه حق معلوم؛ لأن الحق المعلوم هو الزكاة. وهذه المراحل الثلاث هي التي تُدخل المؤمن في مرتبة الإحسان. ولذلك نجد الحق في آخر مرحلة في الآية التي نحن بصددها يتحدث عن الإحسان: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ أي: أن يزيد الإنسانُ المؤمنُ من جنس ما فرض اللَّه. ووقت

أن كان التكليف في دور الاستكمال فكل حكم يأتي كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل. أما الذين أدركوا كل التكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً ـ المدة التي مكثها وعاشها رسول اللَّه ﷺ رسولاً ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ـ فقد استوت عندهم التكاليف، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

المتيقن من اللَّه والواثق به يعلم أنه لا يوجد مسافة تبعده عن عطاء اللَّه، مثال ذلك حينما سأل النبيُّ ﷺ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصاري: «كيف أصبحت يا حارث؟».

قال: أصبحت مؤمناً حقا. لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعاني هي الإيمان الحق؛ لذلك قال الرسول ﷺ: «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟».

أجاب الصحابي: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربّي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر

إلى أهل النار يتضاغون فيها «يتصايحون فيها».

فقال: «يا حارث: عرفت فالزم»[١] ثلاثاً.

والحق ساعة يقول: «سـ» وساعة يقول: «سوف» فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى، وكل عطاء من اللَّه جميل. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

والجنة ـ كما قلنا من قبل ـ على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يذبل نباتها وشجرها ويبس ويتناثر، أو يصيبها الجدب، أمّا جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم، وإن لم تطلق كلمة «الجنة» من أي قيد أو وصف بل قيدت، فالقصد منها معنى آخر؛ كقول الحق:

﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾[القلم: ١٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والجنة بربوة هي البستان على مكان عالٍ، وهي ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث؛ لأن

(١) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية. وضعفه الدارقطني وابن حبان.

الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع في هذه الأرض، فيظل النبات أخضر اللون، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ويزيد على ذلك أنها بربوة، وأنها تُرْوَى بالمطر من أعلى، ومن الطَّل، فتأخذ الرَّي من المطر للجذور، والطل لغسل الأوراق. كل ذلك يطلق على الجنة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضارتها وخضرتها، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة.

ونجد القرآن مرة يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهذا يعني أن منبع المياه بعيد. ومرة أخرى يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ويعني أن منبع المياه لن يحجزه أحد؛ لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها.

ويَعِدُ الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة، والخلود هو المكث طويلاً، فإذا قال الحق: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ أي: أن المكث في الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم.

وهذا وعد مَنْ؟ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

وحين يعدك من لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده، فهذا هو وعد الحق ـ سبحانه ـ. أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه، أو لا يجد الوُجد واليسار والسَّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفي بما وعد به، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك، لكن اللَّه سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار، ولا يعجزه شيء، وليس معه إلٰه آخر يقول له: لا. إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه.

قول اللَّه هنا: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا: أنا لا أريد أن أستفهم منك، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله اللَّه، أيوجد أصدق من اللَّه؟

وتكون الإجابة: لا يمكن، حاشا للَّه؛ لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه، أو لخوف ممن يكذب عنده، واللَّه منزه عن ذلك، فإذا قال قولاً فهو صدق.

ويكرر الحق سبحانه قوله:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وجاءت كلمتا «ذكر» و«أنثى» هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله: «يعمل» أن المرأة مُعْفَاة منه؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل، وفي ذلك إيحاب بأن أمرها مبني على الستر.

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾. وجاء سبحانه هنا بلفظة «من» التي تدل على التبعيض... أي: على جزءٍ من كلّ فيقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يقل: «**وَمَن يَعْمَلْ الصَّالِحَاتِ**» لأنه يعلم خلقه. فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أَن يعمل من الصحالت على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هي أول مرتبة ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح؛ فالذي يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات

للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح. وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إلٰه كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإلٰه واحد. كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التي ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفي، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية وانطبق عليه أنه عمل صالحاً، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها، وليس لهم جزاء عند اللَّه.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

قد يقول البعض: إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول: من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العقاب، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم،

والحق هو القائل: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

ومن يعمل الحسنة يأخذ عشرة أمثالها. وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من اللَّه، والفضل من اللَّه غير مقيد وهو فضل بلا حدود، فكيف يأتي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول: إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل.

أما الفضل بالنسبة للَّه فأمره مختلف. إنه غير محدود ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، فسبحانه لا يكتفي بجزاء صاحب الحسنة بحسنة، بل يعطي جزاء الحسنة عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، ولا يتراجع عن الفضل؛ فالتراجع في الفضل ـ بالنسبة للَّه ـ هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من اللَّه بالفضل من البشر، فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل، أما اللَّه فلا رجوع عنده عن الفضل.

وهو القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ والنقير هو: النقرة في ظهر النواة، وهي أمر ضئيل للغاية. وهناك شيء آخر يسمى «الفتيل» وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نواة التمر، وشيء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه «القطمير».

وضرب اللَّه الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

وعندما نتأمل كلمة «وعد» نجدها تأتي، وتأتي أيضاً كلمة «أوعد» و«وعد» وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به، تكون «وعد» للخير، و«أَوْعَد» للشر. ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به، فالاثنان متساويان، فيصح أن تقول: «وعدته بالخير» ويصح أيضاً أن تقول: «وعدته بالشر». لكن إن لم تذكر المتعلق، فإن «وعد» تستعمل في الخير. و«أوعد» تستعمل في الشر. والشاعر يقول:

وإنِّي إنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وحين يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ فهذا وعد مطلق لا إخلال

به؛ لأن الذي يخل بالوعد هو الإنسان الذي تعتريه الأغيار؛ فقد يأتي ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه في موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً، لكن ساعة يكون اللَّه هو الذي وعد فسبحانه الذي لا تداخله الأغيار، بل هو الذي يجري الأغيار، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذي لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ اللَّه وعده. أما وعد البشر فقد تأتي قوة أخرى تعطل هذا الوعد.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ سبحانه وتعالى يبيّن أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصي فإن تابوا فلهم مغفرة؛ لأن درء المفسدة مُقَدَّم على جلب المصلحة؛ فأنت قد تكون جالساً ويأتي واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة، وفي اللحظة نفسها التي تمتد فيها يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك، أي اتجاهات سلوكك تغلب؟ لا بد أنك سترد على من يضربك أولاً. والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة. ونجده سبحانه وتعالى يأتي بأشياء تلفت القلب فهو يقول:

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾[آل عمران: ١٨٥].

فالخطوة الأولى للفوز هي الزحزحة عن النار، والخطوة التالية بعد ذلك هي دخول الجنة. فسبحانه يمنع المفسدة

ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة؛ لذلك يقول الحق بداية: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾. والإنسان منا ساعة تأتي له الخواطر يفكر في أشياء يطمح إليها، وهناك أشياء يخاف منها. وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه، يخاف من المفسدة، ويخاف من عدم تحقيق الآمال. إذن: فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمني، فأجر الإنسان على عمله في الدنيا يذهب ويزول؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت، أما أجر الآخرة فهو الباقي أبداً، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان، ذلك هو الأجر العظيم.

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعاني يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون النفس مستعدة؛ لأن هناك تأميلاً في الخير وترهيباً من الشر.

طاعة اللَّه
طريق المؤمنين إلى الجنة

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

والفعل هنا: «يطع» والمطاع هو: اللَّه والرسول ﷺ، أي: أن هذا الأمر تشريع اللَّه مع تطبيق رسوله ﷺ، أي: بالكتاب والسنة، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرار الفعل فاعلم أن المسألة واحدة... أي: ليس لكل واحد منهما أمر، بل هو أمر واحد، قول من اللَّه وتطبيق من الرسول ﷺ لأنه القدوة والأسوة؛ ولذلك يقول الحق في الفعل الواحد:

﴿ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ . . . ﴾ [التوبة: ٧٤].

فما أغناهم اللَّه غنىً يناسبه وأغناهم الرسول ﷺ غنىً يناسبه فالفعل هنا واحد. فالفعل هنا من اللَّه ورسوله؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالاً لأمره، فتكون المسألة واحدة.

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهي قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول اللَّه ﷺ كان مجلسه ﷺ لا يُصرف عنه قادم، يأتي فيجلس حيث ينتهي به المجلس، فالذي يريد النبي دائماً يستمر في جلوسه، والذي يريد أن يراه كل فترة يأتي كلما أراد ذلك. فثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ كان شديد الحب لرسول اللَّه ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه، وعُرِف الحزن في وجهه، فسأله النبي ﷺ قائلاً: «ما بك يا ثوبان؟» فقال: واللَّه ما بي مرض ولا علة، ولكني أحبك وأشتاق إليك، وقد علمت أني في الدنيا أراك وقتما أريد، لكنك في الآخرة ستذهب أنت في عليين مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً.

ونص الحديث كما رواه ابن جرير ـ بسنده ـ عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول اللَّه ﷺ ـ وهو محزون ـ فقال له النبي ﷺ: «يا فلان مالي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي اللَّه شيء فكرتُ فيه فقال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآيـــة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ . . . فبعث النبي ﷺ إليه فبشَّره».

وكيف تأتي هذه على البال؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول اللَّه ﷺ؛ وفكّر: هل ستدوم له هذه النعمة؟ وتفكر في الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ﷺ ستعلو كل المنازل. وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبي ﷺ لن تنتهي ولن تزول، إنه يراه في الدنيا، وبعد ذلك ماذا يحدث في الآخرة: إما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبداً. وإن دخل الجنة والنبي ﷺ في مرتبة ومكانة عالية. فماذا يفعل؟

انظر كيف يكون الحب لرسول اللَّه ﷺ، فاللَّه سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذي شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطميناً لهؤلاء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المطيعون للَّه والرسول ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ والمسألة جاءت خاصة بثوبان، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول اللَّه ﷺ، فأنت مع من أحببت، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان. لقد كان كلام ثوبان سبباً في الفتح والتطمين لكل الصّدّيقين والشهداء والصالحين، وهي أصناف تستوعب كل المؤمنين، فأبو

بكر الصديق صدّيق لماذا؟ لأنه هو المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول اللَّه ﷺ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل: هل هذه تنفع أو لا تنفع؟ فعندما قالوا لسيدنا أبي بكر: إن صاحبك يدّعي أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل، ماذا قال أبو بكر؟ قال: إن كان قال ذلك فقد صدق.

لم يعلل صدقه إلا بـ«إن كان قال ذلك»، فهذا هو الصدّيق الحق، فكلما قال محمد ﷺ شيئاً صدّقه أبو بكر، وأبو بكر ـ رضوان اللَّه عليه ـ لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقاً للرسول ﷺ بل بمجرد أن قال ﷺ: إني رسول؛ قال أبو بكر: نعم. إذن: فهو صدّيق.

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول، هم جربوا النبي عليه الصلاة والسلام، وعرفوه، فَلَمَّا تحدث بالرسالة صدّقوه على الفور؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول، ومثال ذلك: سيدتنا خديجة ـ رضوان اللَّه عليها ـ ماذا قالت عندما قال لها النبي: إنه يأتيني كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رئياً وَمَسّاً من الجن يصيبني. فقالت خديجة: «كلَا واللَّه ما يُخزيك اللَّه أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم،

وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق». وهذا أول استنباط فقهي في الإسلام.

هذا هو معنى ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والشهداء: هم الذين قُتلوا في سبيل اللَّه، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل اللَّه ألا يقول: أنا أريد أن أموت شهيداً، ويلقي بنفسه إلى التهلكة، إياك أن تفهمها هكذا، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوَّك دون أن تمكنه من أن يقتلك؛ لأن تمكينه من قتلك، يفقد المسلمين مقاتلاً. فكما أن الشهداء لهم فضل؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل. فالإسلَام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء.

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء؟ ومن يحمل منهج اللَّه إلى الباقين؟ إذن: فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب، فهذا له مهمة وهذا له مهمة أخرى، ولذلك كانت «التقية» وهي أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالي الكفار ظاهراً، وقلبه مطمئن بالعداوة لهم انتظاراً لزوال المانع، وذلك استبقاء لحياته كي يدافع ويجاهد في سبيل اللَّه. وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قُتل في سبيل اللَّه ذهب إلى حياة أفضل وإلى خير أكثر، هذا يثبته الشهيد.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة، فهناك من يقول: هُبِّي يا رياح الجنة، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه، ومفرد (شهداء)، إما «شهيد» وهو الذي قُتل في سبيل اللَّه، وإمّا هي جمع «شاهد»، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند اللَّه أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول اللَّه ﷺ أنه بلّغهم.

والمعاني كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به، وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين: من يُقتل في سبيل اللَّه، ومن يبقى بدون قتل في سبيل اللَّه؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد، والثاني يعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضاً: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

و«الصالحين» الصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في الأرض. فكل شيء يؤدي نفعاً يتركه على حاله، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق النفع منه، فمثلاً: الماء ينزل من السماء، وبعد ذلك يكون جداول، ويسير في الوديان، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك

الصالح على صلاحه، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبني حولها كي يحافظ عليها. إذن: فهذا قد أصلح بأن زاد في صلاحه.

وهناك ثالث يقول: بدلاً من أن يأتي الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء في القِرَب أو على رؤوس الحاملين، لماذا لا أستخدم العقل البشري في الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس في أماكنهم، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد. ومن فعل ذلك يسَّر على الناس، فيكون مصلحاً بإن جاء إلى الصالح في ذاته فزاده صلاحاً.

ويختم الحق الآية بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ و«أولئك» تعني النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا توجد رفقة أفضل من هذه، والرفيق هو: المرافق لك دائماً في الإقامة وفي السفر، ولذلك يقولون: خذ الرفيق قبل الطريق، فقد تتعرض في الطريق لمتاعب وعراقيل؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق. ونعرف أن الأصل في المسائل المعنوية كلها منقول من الحسيات، وفي يد الإنسان يوجد المرفق... يقول الحق:

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه يتكئ على مرفقه

ليستريح، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضاً. إذن: فالمادة كلها مأخوذة من الرفق، فالرفيق مأخوذ من الرفق و«المرافق» مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه، وفي كل بيت توجد المرافق وهي مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه، وفي الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التي تخدم الفلاح، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم، ومكان للأكل، وقد يربط الفقير حماره في زاوية من الحجرة، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة. أي: يكون في المنزل مطبخ مستقل، ومحل لقضاء الحاجة، وحظيرة مستقلة للمواشي، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل، وهذه كلها اسمها «مرافق» لأنها تريح كل الناس.

إذن: فقوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ مأخوذة من الرفق وهو: إدخال اليسر، والأنس، والراحة، ويكون هذا الإنسان الذي أطاع اللَّه ورسوله بصحبة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

وقد يقول قائل: كيف يجتمع كل هؤلاء في منزلة واحدة؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم في الدنيا، أليس اللَّه هو القائل:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

ونقول: ما دام المؤمن أطاع اللَّه وأطاع الرسول، أليس ذلك من سعيه؟ فهذه الطاعة والمحبة للَّه ولرسوله هي من سعي العبد؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه، ويصبح من حقه أن يكون في معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وقد تكون الصحبة تكريماً لهم جميعاً ليأنسوا بالصحبة، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فساعة يرى واحد منزلته في الآخرة أعلى من آخر، إياك أن تظن أنه سيقول: منزلتي أعلى من هذا؛ لأنه ما دام قد ترك الأسباب في الدنيا وعاش مع مسبِّب الأسباب، فهو من حبه اللَّه يحب كل من سمع كلام ربنا في الدنيا فيقول لكل محب للَّه: أنت تستحق منزلتك، ويفرح لمن منزلته أعلى منه.

وأضرب هذا المثل ـ وللَّه المثل الأعلى ـ لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرون، بعضهم يحب أن ينجح فقط، وبعضهم يحب العلم لذات العلم، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً، أيكرهونه أم يحبونه؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون: هذا هو الأول علينا؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين، فكذلك

المؤمن الذي يكون في منزلة بالجنة ويرى غيره في منزلة أعلى، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة، لا؛ لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعاً للَّه ويفرح له، مثله مثل التلميذ الذي ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حق. وهكذا نجد أن الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لا تخدش قول الحق: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

وهناك بحث آخر في قوله الحق: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فـ«اللام» تفيد الملك والحق، كقولنا: ليس لك عندي إلا كذا، أي: أن هذا حقك، فقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: هي حق للمؤمن، وقد حددت العدل في الحق ولم تحدد الفضل، ولذلك قال بعدها:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠].

فالفضل من اللَّه يستمد حيثيته من سعي الإنسان، فقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ حددت الحق الذي لك والذي توجبه عدالة التكليف، لكن ربنا لم يقل: إن هذا العطاء للَّه من الحق والعدل، بل هو من الفضل، والفضل من اللَّه هو مناط فرح المؤمن؛ لأنك مهما عملت في التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة للَّه، ولذلك أوضح سبحانه لنا: تنبهوا... أنا كلفتكم وقد تعملون

وتجتهدون، لكن لا تفرحوا مما سيجمعه هذا العلم من حسنات، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله. قال سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وذلك الفضل من اللَّه يردّ على من يقول: كيف يجيء «ثوبان» أو مَن دون «ثوبان» ويكون في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، ونقول: لو لم تكن منزلته أدنى لما كان في ذلك تفضُّل، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته للَّه ولرسوله فوق كل طاعة، أما حبه للَّه وللرسول، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق اللَّه له ـ وما توفيقي إلا باللَّه ـ والفضل هو مناط فرح المؤمن، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ ونحن نرضى ونفرح ونكتفي بعلم اللَّه؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط، ويعرف صدق الحب القلبي وصدق الوداد، وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه في المنزلة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود اللَّه، وحين يحدّ اللَّه حدوداً. . . أي: يمنع أن يلتبس حق بحق، أو أن يلتبس حق بباطل؛ فهو الذي يضع الحدود وهو الذي فصل حقوقاً عن حقوق.

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق في البيوت والأراضي فنحن نضع حدوداً واضحة، ومعنى «حد» أي: فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له من آخر. والحدود التي نصنعها نحن والتي قد لا يتنبه لها كثير من الناس، هي نوعان: نوع لا يتعدى بالبناء، فعندما يريد واحد أن يبني، فالأول يبني على الأرض التي هي حق له، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض. وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع في أرضه وبين القطعتين حدٌّ، وهذا يحدث في النفع.

لكن لنفترض أن فلاحاً يريد أن يزرع أرزاً، وجاره لن يزرع أرزاً، فالذي لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حداً اسمه «حد الجيرة» ليمنع الضرر، وهو ليس «حد الملكية» فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين، ويصنع بهما حد الجيرة، حتى لا تتعدى المياه التي يُروى بها الأرز إلى أرض

الجار، إنه حد يمنع الضرر، وهو يختلف عن الحد الذي يمنع التملك.

إذن: فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة؛ «لا تجعل حقك عند آخر حدك، بل اجعل حقك في الانتفاع بعيداً عن حدك»، وهذا في الملكية. وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك. وكذلك يعاملنا اللَّه، ويقول في الأوامر:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وفي النواهي يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أي: أنك إذا ما تلقيت أمراً، فلا تتعدَّ هذا الأمر، وهذه هي الملكية، وإذا ما تلقيت نهياً فلا تقرب الأمر المنهي عنه. مثال ذلك النهي عن الخمر، فالحق لا يقول: «لا تشرب الخمر»، وإنما يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾. أي: لا تذهب إلى المكان الذي توجد فيه من الأصل، كن في جانب وهذه الأشياء في جانب آخر.

ولذلك قلنا في قصة أكل آدم من الشجرة: أقال الحق:

«لا تأكلا من الشجرة؟» أم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؟ إنه سبحانه قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وهذا حد اسمه «حد عدم المضارة» إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة. وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك. ففي الأوامر يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وهذا ما يتعلق بالملكية.

وفي النواهي يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ورسول اللَّه ﷺ يقول هذا الحديث: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى اللَّه تعالى في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

لذلك تجنب حدود اللَّه؛ مثال ذلك قول الحق:

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتي له زوجته لتناقشه في أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر اللَّه بعدم مباشرة الزوجة في المسجد. ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة، لأن ذلك من حدود اللَّه. وسبحانه يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وهناك في مسائل الميراث يقول الحق:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وكان يكفي أن يقول الحق ـ من بعد بيان الحدود: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ ولكنه قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذلك لبيان أن لرسول اللَّه ﷺ أن يضع حدوداً من عنده لما حلّ، وأن يضع حدوداً لما حرم. وهذا تفويض من اللَّه لرسوله في أنه يُشرع؛ لذلك فلا تقل في كل شيء: «أريد الحكم من القرآن».

ونرى من يقول: بيننا وبينكم كتاب اللَّه، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول ﷺ مفوض في التشريع، وهو القائل:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

إنه ﷺ مفوض من اللَّه، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا في سنة رسول اللَّه، إنهم يحتكمون إلى كتاب اللَّه، وينسون أو يتجاهلون أن في الكتاب الكريم تفويضاً من اللَّه لرسوله ﷺ أن يشرع.

هم يقولون: بيننا وبينكم كتاب اللَّه، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. وقولهم مثل هذا الكلام دليل على صدق رسول اللَّه ﷺ فيما يقول، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا: يا رسول اللَّه.

لقد روى المقدام بن معدي كرب قال: حرَّم النبي ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي وغيره فقال رسول اللَّه ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يُحدِّث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب اللَّه فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإن ما حرم رسول اللَّه كما حرم اللَّه»[1].

فكيف يا سيدي يا رسول اللَّه ذلك، ولم يقل أحد هذا الكلام؟

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر.

إذن: فقولهم الأحمق دليل على صدق الرسول ﷺ فيما أخبر. ويسخرهم الحق؛ فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبي على صدق كلام النبي.

والحق يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ والذي يطيع اللَّه ورسوله في الدنيا هو من أخذ التكليف وطبَّقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة في الآخرة. لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين، أو هو الجزاء على الدين؟

إنه الجزاء على الدين، وموضوع الدين هو السلوك في الدنيا، ومن يسير على منهج اللَّه في الدنيا يدخل الجنة في الآخرة، فالآخرة ليست موضوع الدين، لكن موضوع الدين هو الدنيا، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك: لِمَ تجعل للدين موضوعاً؟ إياك أن تقول: موضوع الدين هو الآخرة... لأن الآخرة هي دار الجزاء، وفي حياتنا نأخذ هذا المثل: هل الامتحان موضوع المناهج، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة، وهي موضوع الامتحان؟

إن المناهج التي يدرسها الطالب هي موضوع الامتحان، وكذلك فالدنيا هي موضوع الدِّين، والآخرة هي جزاء لمن نجح ولمن رسب في الموضوع؛ لذلك فإياكم أن تقولوا: دنيا ودين، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين؛ لأن الدنيا

هي موضوع الدين. فالدنيا تقابلها الآخرة والدين لهما. الدين مزرعة والآخرة محصدة. بهذا نرد على من يقول: إن الدنيا منفصلة عن الدين.

ومَن يطع اللَّه ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات، وهل دلالة «مَن» للواحد؟ لا، إن «من» تدل على الواحد، وتدل على المثنى وتدل على الجمع، مثال ذلك قولنا: جاء مَنْ لقيته أمس ونقول أيضاً: جاء مَنْ لقيتهما أمس، ونقول أيضاً: جاء مَنْ لقيتهم أمس... إذن: فـ«مَنْ» صالحة للمفرد والمثنى والجمع.

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع. كما قلنا في أول الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

على الرغم من أن القياس أن تقول: «إياك أعبد وإياك أستعين». لكن قال الحق سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة.

وهناك من يقول: إذا دلَّت: «مَن» على المفرد فقد لحظنا لفظها، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها.

ولمن يقول ذلك نقول: إن هذا الكلام غير محقق علمياً؛ لأن «من» لم يقل أحد إنها للمفرد. بل إنها

موضوعة للمفرد والمثنى والجمع. فلا تقل: استعمل لفظ «من» مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى، لأن لفظ «من» موضوع لمعانٍ ثلاثة: هي المفرد والمثنى والجمع.

وقد سألني أخ كريم في جلسة من الجلسات: لماذا يقول الحق سبحانه في سورة الرحمٰن:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]؟.

فقلت له: إن سورة الرحمٰن استهلها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾[الرحمٰن: ١ ـ ٣].

وبعد ذلك قال الحق:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمٰن: ١٤، ١٥].

وقال سبحانه: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمٰن: ٣١].

وقال تعالى:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

إذن: فمن خاف مقام ربه، هو من الجن أو من الإنس، إن كان من الجن فله جنة، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى. إذن: فمن خاف مقام ربه فله جنتان.

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن، لأن اللَّه لا يعاني من أزمة أماكن، فحين شاء أزلاً أن يخلق خلقاً أحصاهم عدّاً من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وعامل الكل على أنه مؤمن مطيع وأنشأ لكل واحد مكانه في الجنة، وعامل سبحانه الكل على أنه عاص وأنشأ له مقعداً في النار، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هي أزمة أماكن.

فإذا دخل صاحب الجنة جنته، بقيت جنة الكافر التي كانت معدة له على فرض أنه مؤمن؛ لذلك يقول الحق:

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٢].

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا.

إذن: فالمعاني نجدها صواباً عند أي أسلوب من أساليب القرآن.

وهنا يقول الحق: ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذي يسيل فيه الماء وليس هو الماء، الحق يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فأين تجري الأنهار؟

أتجري الأنهار تحت زروعها، أم تحت بنيانه؟ ونعرف أن الزروع هي التي تحتاج إلى مياه، ونحن نريد أن نبعد

المياه عن المباني كيف؟ ولكن ليس هناك شيء مستحيل على اللَّه، لأنها تصميمات ربانية.

فالخلق قد يشقّون نهراً، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب في المباني، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة؛ تكون فيه الجنات تجري من تحتها مياه الأنهار، ولا يحدث منها نشع، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها، والذي يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه، فهو ـ سبحانه ـ يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ ومرة أخرى يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فهذا ممكن وذاك ممكن.

فقوله ـ سبحانه ـ: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجري وتمر من تحت الجنات. لا، هي تجري منها أيضاً؛ يقول اللَّه تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى. إنها أنهار ذاتية. وعندما نقرأ أن الأنهار تجري من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل: ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أضع تصميمات مباني الدنيا وآخذ من قول الحق أنه من الممكن أن تقيم مباني تجري من تحتها الأنهار؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت.

نحن نقيم القناطر وهي مبانٍ وتجري من تحتها الأنهار، وعندما تكون المواصفات صحيحة في الطوب والأسمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة في المبنى. فالخلل الذي يحدث في المباني عندنا، إنما يأتي من أثر الخيانة في التناول ومن الممكن أن تجري الأنهار تحت قصور الجنة، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ألا يوحي ذلك للمهندس المسلم أن يحيا في هذه اللفتة الإلٰهية ويأخذ منها علماً ويستطيع أن يقيم مباني تجري من تحتها الأنهار؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل؛ لفعل ذلك بتوفيق اللَّه.

ولنتكلم عن مصر التي تعاني من أزمة إسكان، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدراً كبيراً من الأرض، سواء أكانت النيل، أم الفروع التي تأخذ من النيل، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة، نقيم عليها مباني تسع مرافق الدولة كلها، ويتم إنجاز المباني فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف. وليس معنى ذلك أن نبني كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمباني، ولكن نبني الثلث، ونترك فراغاً مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر،

ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة، إنها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها.

إن بلداً كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة، ونستطيع أن نبني على الفراغات سواء أكانت فراغات في مساحات النيل، بشرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث. أم نبني المرافق تحت الأرض، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء في هذا المجال.

والحق يقول: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ صحيح أن الجنة ستكون نعيماً ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق، فالنعيم الذي يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور في معطيات النعيم، وقلنا قديماً: إن عمدة إحدى القرى قال: أريد أن أبني مضيفة وحجرة للتليفون، ومصطبة نفرشها. هذا هو النعيم في تصور العمدة. ونحن في الحياة نخاف أن نترك النعيم أو يتركنا النعيم لكن نعيم الآخرة هو ثواب الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين لذلك تكون جنات النعيم دائمة، فلا أنت تموت ولا هي تذهب.

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وما هو «الفوز»؟

إنه النصر، إنه الغلبة، إنه النجاح، إنه الظفر بالمطلوب.

فإذا كان فوزنا في الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التي يملكها الواحد منا، فما بالنا بالفوز الذي يأتي في الآخرة وهو فوز الخلود في جنة من صنع ربنا، أليس ذلك فوزاً عظيماً؟

إننا إذا كنا نفرح في الدنيا بالفوز في أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذي يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة، ومهما ضحى المؤمن في سبيل الآخرة، فهناك فوز يعوض كل التضحيات، ويسمو على كل هذا.

وإذا قال قائل: ألم يكن من الأفضل أن يقول: ذلك الفوز الأعظم؟ نقول له: إنك سطحي الفهم؛ لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيماً، لأن الأعظم يقابله العظيم، والعظيم يقابله الحقير، فحين يقول الحق عن فوز الآخرة: إنه عظيم، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه.

أهل الجنة يرثون أهل النار

إن اللَّه سبحانه حين يقول: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها ـ حاشا للَّه ـ فهو عالمها، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه. ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدي من يضل، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط، وكذلك لم يخلق أماكن في النار لا تسع فقط أهل النار، بل يمكنها أن تسع كل الخلق، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء ما دام هناك اختيار للإنسان، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن في الجنة. وعلى فرض أنكم جميعاً ـ والعياذ باللَّه ـ كفرتم فلكم أماكن في النار، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر.

وحين يأتي أهل الجنة ليدخلوا الجنة، وأهل النار ليدخلوا النار، سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت

مخصصة لمن دخلوا النار. ويعلن لأهل الجنة: أورثتموها وخذوها أنتم.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٤٣]....

وهي ميراث من الذين كانت مُعدَّة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها. فإياك أن تفهم أن نظر اللَّه إلى خلقه ليعلم منه شيئاً. لا؛ إنَّه العليم أزلاً.

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

الساعة حق

وعد اللَّه حق ٩
الطاعة والمعصية ضابط الثواب والعقاب ١٢
عقاب المسيء ٢١
يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ٢٨
فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان؟ ٣١
وعود الشيطان الكاذبة ٣٥
ألوان النعيم والعذاب ٤٠
رجال بين الجنة والنار ٤٥

أهل الجنة

اليقين في نعيم الجنة ٥٥
جنة عرضها السموات والأرض ٥٩

رفقاء النبي ﷺ في الجنة ٦٤
جزاء المتقين الجنة ٦٦
❊ نساء أهل الجنة ٦٩
جزاء القتال في سبيل اللَّه الجنة ٨٨
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ١٠٦
❊ أنهار الجنة ١٠٨
طاعة اللَّه طريق المؤمنين إلى الجنة ١٦٥
أهل الجنة يرثون أهل النار ١٨٩